المشروع الوطني للترجمة
15
العلوم الإنسانية

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الحكمة
لمن يبحث عنها

تأليف: فريدريك لونوار
ترجمة: عبير حمود


تلجرام
مكتبة سور الأزبكية

الحكمة

لمن يبحث عنها


المشروع الوطني للترجمة
15
العلوم الإنسانية

الحكمة

لمن يبحث عنها

تـأليـف : فريدريك لونوار

ترجمة : عبير حمود

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٩م

مع أننا نستطيع الاطلاع على ما يعرفه الآخرون، إلا أننا في معرفتنا المتواضعة، لا يمكننا أن نعتمد إلا على حكمتنا الخاصة.

مونتين، كتاب محاولات، الجزء الأول، ٢٥

هل تريد أن تنجح في حياتك؟

صديقي القارئ - بما أننا سنتحاور من خلال هذا الكتاب الصغير- أود في البداية أن تطرح أنت أسئلة تتناول انشغالاتك العميقة. أجل، تستطيع كلمة «حكمة» أن تشمل معنيين متباينين. تُرى هل فتحتَ هذا الكتاب لأنك تريد أن تبحث عن الاعتدال والحذر في تصرفاتك؟ أو بالأحرى لأنك تود النجاح في حياتك، أي أنك ترغب في أن تعيش حياة جيدة وسعيدة، حياة تسير في طريق الخير؟ إن الحكمة، في معناها الفلسفي الذي يهمني، هنا هي المثل الأعلى لحياة ناجحة. هل هذا ما تتطلع إليه فعلاً؟ لا أن تنجح في الحياة، وذلك بالحصول على مهنة مريحة وعلى كثير من المال، بل أن تنجح في حياتك، فتعيش حياة جيدة وسعيدة.

يتساءل بعض البشر دائماً عن معنى وجودهم: هل نحن على هذه الأرض لنأكل وننام ونتناسل ونعمل ونتلهى فقط؟ أم أن الحياة الإنسانية يمكن أن تحمل معنى آخر؟ حاول رجال ونساء، عبر عصور عدة وأماكن متنوعة جداً، أن يجيبوا عن هذا السؤال. بدت بعض الأجوبة متشابهة، وكانت ثمرة معرفتهم وتجربتهم. يقولون: إن أهم شيء في حياتنا القصيرة، هو تعلم العيش بطيبة وذكاء؛ لنحيا بأفضل ما يمكن، ونكبر إنسانياً. ونكون سعداء بعمق، وأكثر فائدة للآخرين. فنتغلب على الآلام التي تظلم روحنا، وتسمم علاقتنا مع الآخرين. وهذا ما نسميه بالـ «حكمة»: أي الميل نحو هذا

المثل الأعلى لحياة نبيلة وواعية وواضحة ومسؤولة ومحبوبة ومتناغمة وعادلة وهادئة وسعيدة وحرّة.

- في الحقيقة، أتطلع لهذا المثل الأعلى، لكن أليس صعب المنال؟

- من الصعب جداً بلوغه، ولذا فإنني أعرّف الحكمة بصفتها مثلاً أعلى نسعى إليه، أكثر من كونها هدفاً يجب أن نبلغه بأي ثمن كان. إن الرغبة في أن نكبر بالحكمة، تعني أننا نقوم باختيار هدف جوهري يمكن له أن يغير حياتنا، أي أنه يستطيع هيكلة قيمنا. فنتعرف إلى ما هو ضروري وما هو غير ذلك ما هي الأولويات المعطاة لوجودنا؟ هل ما أريده قبل كل شيء امتلاك هو الثروة الخارجية (المادية) أم الثروة الداخلية (المعنوية)؟ هل أرغب بالموت محاطاً بكثير من الممتلكات المادية أم بعدد من الأصدقاء الأعزاء؟

- الواحد لا يمنع بالضرورة الآخر! ألا نستطيع أن نكون أغنياء وحكماء في آن واحد؟

- حتماً. إن المال والنجاح الاجتماعي لا يتعارضان بالضرورة مع الحكمة. هناك بشر أغنياء وأقوياء لكنهم طيبون وحكماء أيضاً، وهناك بشر فقراء ومغمورون لكنهم جشعون وخبيثون. إن الإمبراطور الروماني ماركوس أوريليوس[1] كان واحداً من أكثر الناس ثراء وقوة في عصره. وكان أيضاً إنساناً شغوفاً بالحكمة، يبحث عن طريق يقوده إلى حياة سويّة. لكنه كان مستعداً للتخلي عن كل ثروته وسلطاته حين أحس بأن تلك الأشياء يمكنها أن تفسد روحه، ذلك أن البحث عن الحكمة كان هدفه الأساسي.

وهذا هو السؤال الذي أطرحه عليك: ما هو الأهم بالنسبة إليك؟ النجاح في حياتك والتوجه نحو حياة مريحة وسعيدة، مهما تكن الجهود التي ستبذلها للتقرب من هذا المثل الأعلى؟ أو بالأحرى، هل الأهم هو أن تكون ناجحاً في حياتك، غنياً ومشهوراً، حتى وإن كانت هاتان الحالتان، للمرة الثانية، ليستا بالضرورة متناقضتين؟

ثمة أيضاً أناس يبحثون عن النوم الهانئ، وعن الغذاء، وعن الحب، وعن التسلية فقط، دون أن يطرحوا على أنفسهم أسئلة أخرى، إنهم يساهمون في تحسين العالم، ولا يهتمون كثيراً بتحسين أنفسهم. كما يقول الفيلسوف «ابن ميمون»[٢]، وهو المفكر اليهودي الكبير في القرن الثاني عشر: «كل إنسان لديه القدرة على أن يكون مستقيماً [...] أو سيئاً، حكيماً أو سفيهاً [...]. لا يوجد شخص يجبره أو يحدد مسبقاً تصرفاته، لا يوجد شخص يقوده إلى طريق الخير أو الشر. إنه بنفسه وبوعي كلي يسلك الطريق الذي يرغب فيه». وإن وجدت فارقاً بسيطاً لهذا الإيمان المطلق في الإرادة الحرة للإنسان، فكثيراً ما نخضع لعواطفنا اللاواعية، وكما قال سبينوزا[٣] وفرويد[٤]، فإنه من المؤكد أننا نواجه باستمرار خيارات أخلاقية تربط حياتنا بتوجهات يمكن لها أن تكون متعارضة كلياً. ولكن من يبحث عن الحكمة يبحث عن التقدم، وعن النضج، وعن تطوير قدرات الذكاء والإبداع والطيبة الموجودة في داخله. كما يبحث أيضاً عن الالتزام بتحسين مصير العالم، الذي يعيش فيه.

- وأنت ما هي أولويتك في الحياة؟ أنت غني ومشهور نسبياً بفضل نجاح كتبك. فهل كان هذا شغلك الشاغل؟

- من المهم أن تكون لدي القدرة على الجواب عن هذا السؤال، فكيف يمكن لي أن أحدثك عن الحكمة إذا لم أكن أنا نفسي ملتزماً بالسير في هذا الطريق، ولم أشعر بلذته أو لم يقدم لي أيه خبرة! بالنسبة إلى فلاسفة العصور القديمة، فإن الحكمة هي معرفة نظرية (sophia باليونانية) وعملية (phronèsis) في آن واحد. المعنى الأول لا يسير دون المعنى الآخر. كما يقول صديقي أندريه كونت - سبونفيل[٥]، وهو عاشق حقيقي للحكمة: «يفكر الحكيم في حياته ويعيش بفكره». وهذا يعني دوماً أن يحاول الحكيم ترسيخ أفكاره ومعتقداته عبر أفعاله. هذا لا يعني أنه سيحصل توافق كامل بينهما دائماً، بل يجب علينا أن نسعى إلى ذلك باستمرار.

لكي أرد على سؤالك: كنت أسأل نفسي منذ الطفولة حول معنى الحياة الإنسانية. «لماذا نحن على هذه الأرض؟» بدأت بإيجاد بداية جواب، عندما وضع أبي كتاب أفلاطون «الندوة»[٦] بين يدي في عمر الثالثة عشر أو الرابعة عشر. التهمت إذاً كل الحوارات السقراطية، وفهمت ما كنت أريد فعله حقاً فيما بعد: أن أتعلم معرفة ذاتي، أن أعرف العالم وأن أكبر في الحكمة! في عمر المراهقة، قرأت كمية من كتب الفلسفة، وعلم النفس والروحانية، التي أغنت بحثي عن الحكمة. بعد حصولي على الشهادة الثانوية، سجلت في قسم الفلسفة، التي هي فرع للمعرفة، ويعني جذر كلمة الفلسفة بحد ذاته «حب الحكمة». عشت عدّة أشهر في الهند وتعلّمت التأمل بالقرب من علماء دين التيبت (لاما). خلال هذا البحث الروحي المكثف، عشت أيضاً تجربة صوفية قوية مع المسيح، الذي قادني في عمر

العشرين، للدخول في دير، وفي الوقت نفسه كنت أتابع دراساتي الفلسفية. خرجت من الدير بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر متخلياً عن القيام بأمنياتٍ محددة، لأنني رغم محبتي لهذه الحياة المتقشفة والمتأملة، لم أقم بذلك من أجل متابعة عقائد في أية كنيسة كانت ولا من أجل أمنية بريئة. استأنفت إذاً بحثي المفتوح حول الحكمة واهتممت بشكل خاص بالبوذية، وقد ناقشت رسالة الدكتوراه حول اللقاء بين البوذية والغرب. ومنذ ذلك الحين، لم أتوقف عن الدراسة قطّ، وعن القراءة، وعن التفكير بالأسئلة العظيمة الوجودية، كالحكمة والتأمل.

في الوقت نفسه، حاولت جاهداً دوماً التوجه نحو حياة جيدة وسعيدة، عندما أنجزت عملاً هاماً عن ذاتي: فأمضيت حوالي عشرين عاماً في علاجات نفسية متنوعة! هذا العمل العلاجي سمح لي بأن أعرف ذاتي جيداً، وأن أتحرر من عوائق عدّة، ومن المخاوف، ومن الأحزان، ومن الغضب الموروث من طفولة مؤلمة على الصعيد العاطفي. تعلّمت أيضاً، بمساعدة التأمل، استقبال مشاعري وضبطها بشكل أفضل، وتعلمت الربط بين جسدي، وقلبي وفكري؛ لأن هذا التآلف بين مختلف مكونات كينونتنا يبدو بالنسبة إلي جانباً أساسياً للحكمة، سأحاول الإصرار عليه.

لنعد الآن إلى سؤاليّ المال والاعتراف الاجتماعي اللذين طرحتهما سابقاً. لم يكن المال قط بالنسبة إلي هدفاً أولياً، بالرغم من الثراء الذي أعيش فيه اليوم بسبب نجاح كتبي. وقد حزت على ذلك عندما كنت في سن الثانية والأربعين، إذ كنت قد نشرت عشرين كتاباً، عرفت انتشاراً محدوداً جداً. مع ذلك لم أكن تعساً. ولم أتخلَ قط عن أولوياتي، سواء أحصلت على الكثير

من المال أم القليل منه، وسواء أكنت معروفاً أم لا. لمّا بدأت ببيع كثير من الكتب، استسلمت لبعض الرغبات المادية، كركوب سيارة رياضية مكشوفة! ثم سئمت ذلك، فبعت السيارة المكشوفة؛ لأسترجع سيارتي القديمة، التي يبلغ عمرها اليوم أكثر من عشرين عاماً، وقد سارت ثلاثمئة وخمسين ألف كيلو متر. القسم الأكبر من دخلي يسدد للضرائب (أي إلى الدولة) ويعاد توزيعه في جمعيات ومؤسسات عدة، أسستها بنفسي أحياناً. أعيش بشكل جيد، لكن دون تبذير. بالنسبة إلي الاعتراف الاجتماعي، فإن السنوات العديدة من العلاج النفسي أتاحت لي أن أفهم مدى حاجتي إلى وقت؛ كي أبرهن لأبي بأنه كان بإمكانه أن يفخر بي. لكن في المرة التي طوّرت فيها ثقة حقيقية بنفسي، وعالجت هذا الاضطراب العصبي، تحررت من الحاجة إلى الاعتراف. ساعدتني الشهرة في نشر أفكاري، وأنا سعيد بذلك اليوم، فإن السبب الوحيد للعيش هو أن أستمر في اكتساب قيم على مستوى الإنسانية، وأن أكون مفيداً للآخرين.

- أنت حكيم، إذاً؟

- لا على الإطلاق! أكرر، مرة أخرى، بأن الحكمة هي مثل أعلى أسعى إليه. رغم أنني أسعى إلى أقصى قدر ممكن من التوفيق بين قيمي وأفكاري وأفعالي، لكن يوجد أيضاً مجالات تبدو بالنسبة إلي صعبة البلوغ! لم أستطع تقويم عدة نوازع كامنة في طبيعتي. المهم هو الرغبة في الحكمة، وفي الإرادة لاكتساب قيم إنسانية، وفي التغيير وفي تطوير أنفسنا. من الأفضل السعي نحو هذا البحث، وإن لم نستطع الوصول إليه، عوضاً عن التخلي عنه أو تأنيب الضمير، وذلك لاحتوائه على

مثل عالٍ جداً. ومن جهة أخرى، بتّ سعيداً أكثر فأكثر بشكل عميق وشامل، ثمة قليل من الأشياء تضعف فرحي وصفائي. لكن من يدري غدا إذا كنت سأفقدهما بسبب موت قريب أو مرض خطير؟

- هل تريد القول إنّ الأهم، هو أن تمنح نفسك خطَّ سير، واتجاها ما، وأن تحاول إتباعهما، وإن لم نكن غير متأكدين من الوصول إلى ذلك أبداً؟

- تماماً. إن واحدة من الحكم المفضلة لدي، التي قمت بطبعها ووضعت لها إطاراً، هي جملة لمونتين[٧]، في كتابه «محاولات» والمستلهمة من (سينيكا)[٨] وهي: «لا توجد رياح مواتية لسفينة بلا وجهة». هذا يعني أنه إذا أردنا التقدم في الحياة، يجب أن نسعى لميناء، لهدف، وأن نعطي أنفسنا وسائل كي نصل إليه، بدل أن نتيه دون هدف يذكر. لا أحد يصل إلى هدف سامٍ دون أن يرغب فيه بحماس. إن ما هو صحيح في الحياة الفنية والرياضية والمهنية يتوافق مع المثل الأعلى للحكمة، أي مع حياة جيدة وسعيدة. لنرغبْ في أن نكون سعداء بشكل دائم وعميق، ولنعطِ أنفسنا الإمكانيات لنصل إلى تلك الحالة، عندها يمكن للرياح أن تكون مواتية لرغبتنا. لنرغب في أن نكون أشخاصاً أكثر ذكاء، ووضوحاً، وطيبة، ومسؤولية، عندئذ سنملك كل الفرص لنصبح أفضل. بينما إذا لم نرغب في أي شيء من ذلك، فثمة احتمال ضئيل بأن نكتسب قيماً على مستوى الإنسانية. يجب أن نرغب في جعل حياتنا عملاً فنياً؛ كي تساعدنا على الوصول إلى هذا العمل.

- مع ذلك، قرأت سابقاً أن «الحكيم يعيش دون توقعات». وأنه في الحكمة البوذية، يجب، على سبيل المثال، إبعاد كل رغبة.

- إن ما يقترح بوذا [9] الابتعاد عنه لكي لا يعاني المرء، هي رغبة التعلق، والعطش (tanha في السنسكريتية). لكن كل رغبة ليست سيئة بحد ذاتها، على العكس تماماً. إن رغبات التطور والسعي إلى الأفضل أو الوصول إلى اليقظة، هي رغبات روحية أكثر ضرورة وإفادة. بالنسبة إلي فإن حقيقة أن «الحكيم يعيش دون توقعات»، لا تعني بأي شكل من الأشكال أنه لا يرغب في الحكمة. هذا يعني أنّ عليه ألا يعيش في الأمل وانتظار ما سيحصل. عليه أن يضع كل ما لديه موضع التنفيذ حتى يصل إلى الحكمة، بشرط ألا ينتظر أو ألا يأمل أيّة نتيجة، وإلا فسيمضي حياته محبطاً! فهو إذا تطور على هذا الطريق، وإذا شعر بأنه أكثر سعادة وأكثر قوة في يقظته، فهذا جيد. وإذا شعر بصعوبة في الوصول إلى ذلك وأن نتائج جهوده لا تتوافق مع ما يرغب فيه، فهذا لا يهم. إن بحث الحكمة لا يجب أن يكون من خلال أمرٍ، أو بحث عن الكمال. إننا نعيش في عالم مكوّن من الأوامر، بما في ذلك ما يخص الإنسان «عليك أن تكون سعيداً وتنجح في حياتك»، إنه عالم يكرس عبادة الكمال، والفاعلية والربحية، وهذا كله متناقض مع فكر الحكمة. وحين يتطلع المرء إلى الحكمة، لا يطمح إلى أن يصبح بطلاً روحياً، وأن يكون أكثر حكمة أو أكثر تجسيداً للقيم بين البشر، بل يتطلع إلى العظمة قدر المستطاع، وذلك عندما يقبل حدود الحكمة، وهشاشتها وضعفها. إن بحث الحكمة هو طريق الإنسانية وتقبل الموجود.

هوامش

١- ماركوس أوريليوس: هو فيلسوف رواقي، والإمبراطور الروماني السادس عشر (١٦١-١٨٠) وخامس الأباطرة الأنطونيين الرومان. كان أحد آخر «خمسة أباطرة جيدين» حكموا الإمبراطورية الرومانية من ٩٦ إلى ١٨٠م، كما أنه يُعتبر من أهم الفلاسفة الرواقيين وأبرزهم. تولى عرش الإمبراطورية الرومانية مع أخيه المُتبنى لوسيوس فيروس من ١٦١م وإلى وفاة فيروس في ١٦٦م، ومن ثَمّ مع ابنه كومودوس منذ عام ١٧٧م. أطلق عليه مسمى الفيلسوف من بين الأباطرة الرومانيين، كان ممارساً للفلسفة الرواقية، أصبحت كتاباته الفلسفية الشخصية والتي سُميت لاحقاً بالتأملات مصدراً مهماً للمفهوم الحديث للفلسفة الرواقية القديمة، والتي ما زالت تعدّ من قبل كثير من المعلقين أحد أعظم الأعمال الفلسفية والصروح الأدبية في الحكم والإدارة.

٢- الفيلسوف ابن ميمون: أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي المشهور في الغرب باسم ميمونيديس، يشار إليه كذلك باسم «رمبم» اشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى. كان فيلسوفاً يهودياً سفاردياً وأصبح من أكثر علماء التوراة اجتهاداً ونفوذاً في العصور الوسطى.

٣- باروخ سبينوزا: هو فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن ١٧. في مطلع شبابه كان متوافقاً مع فلسفة رينيه ديكارت عن ثنائية الجسد والعقل باعتبارهما شيئين منفصلين، ولكنه عاد وغير وجهة نظره في وقت لاحق وأكد أنهما غير منفصلين، لكونهما كياناً واحداً. امتاز سبينوزا باستقامة أخلاقه، وخطّ لنفسه نهجاً فلسفياً يعتبر أنّ الخير الأسمى يكون في «فرح المعرفة» أي في «اتحاد الروح بالطبيعة

الكاملة». يرى سبينوزا أن العقلانية هي هدف الحياة الإنسانية، وهي أيضاً وسيلة لهذا الهدف. ومن أجل هذا السبب يبدأ سبينوزا بمحاولة إصلاح العقل، أي محاولة توضح كيفية تهذيب الإنسان لحياته العقلية.

٤ - سيغموند فرويد: هو طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي، يعتبر مؤسس علم التحليل النفسي. وهو طبيب الأعصاب النمساوي الذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. اشتهر فرويد بنظريات العقل واللاواعي، وآلية الدفاع عن القمع وخلق الممارسة السريرية في التحليل النفسي لعلاج الأمراض النفسية عن طريق الحوار بين المريض والمحلل النفسي. كما اشتهر بتقنية إعادة تحديد الرغبة الجنسية والطاقة التحفيزية الأولية للحياة البشرية، فضلاً عن التقنيات العلاجية، بما في ذلك استخدام طريقة تكوين الجمعيات وحلقات العلاج النفسي، وتفسير الأحلام كمصادر للنظرة الثاقبة عن رغبات اللاوعي

٥- أندريه كونت سبونفيل: ولد سنة ١٩٥٢م في باريس، تخرج في المدرسة العليا للأساتذة، وأستاذ محاضر بجامعة السوربون. له كثير من المؤلفات منها «بحث موجز في الفضائل الكبرى»، و«هل الرأسمالية أخلاقية؟»، و«عروض حول الفلسفة»، و«الجنس أو الحب»، و«قيمة وحقيقة»، و«لست فيلسوفاً»، و«المعجم الفلسفي»، و«لذة التفكير». حاول أن يجعل من الفلسفة جهداً فكرياً يطبق على الحياة، على الرغم من كونها ممارسة خطابية استدلالية، لكنها يجب أن تكون من أجل السعادة، لأن الفلسفة هي سبيل السعادة، حيث تبعد كل أشكال القلق والتعاسة والاضطراب.

٦- كتاب أفلاطون الندوة: هو نص فلسفي بقلم أفلاطون يعود تاريخه بين عامي ٣٨٥-٣٧٠ قبل الميلاد. وهو يتعلق بنشأة الحب وغايته وطبيعته، وهو يعدّ (حسب التفسيرات اللاحقة) أصل مفهوم الحب الأفلاطوني. يتم فحص الحب

في سلسلة من الخطب التي يلقيها رجال يحضرون ندوة، أو حفلة شرب. كل رجل يجب أن يلقى مديحاً، وكلمة في مدح الحب (إيروس). يقع مكان الحفلة في بيت الكاتب التراجيدي أغاثون في أثينا. يؤكد سقراط في خطابه أن أعلى غايات الحب هو أن يصبح المرء فيلسوفاً، أو بمعنى حرفي، محباً للحكمة.

٧- ميشيل دو مونتين: أحد أكثر الكتاب الفرنسيين تأثيرا في عصر النهضة الفرنسي. رائد المقالة الحديثة في أوروبا. وكان يقلد اليونانيين والكلاسيكيين في عادتهم في رصف الحكم والأمثال في ثوب مسجوع، تأثر كثيراً بكتابات أرسطو، لكنه تفرد بأسلوبه المرسل، وظهرت شخصيته بوضوح. يشتهر ميشيل دو مونتين بمقالاته التي نُشرت في ثلاثة مجلدات، ودرس الكثير من الأدب اليوناني واللاتيني القديم، وشاء أن يفكر مشاهير زمانه في النسج على منوال بعض أبطال اليونان وروما في حياتهم.

٨- سينيكا: لوكيوس أنّايوس سينيك يعرف أيضاً باسم سينيكا؛ فيلسوف وخطيب وكاتب مسرحي روماني، كتب أعماله باللغة اللاتينية. من أعماله «المسائل الطبيعية، في قصر الحياة» من بين تصوراته الفلسفية موقفه الرواقي في فن سياسة النفس بحيث يتحكم المرء في رغباته وأحاسيسه الجسمية ومطالبه العضوية، وهو ما يحقق للمرء قدراً من الاستواء واللامبالاة تجاه الأحاسيس والسكينة التي هي منتهى الحكمة والسعادة.

٩- بوذا: هو مؤسس الديانة أو الفلسفة البوذية، وهي أقرب إلى فلسفة الحياة منها إلى الدِّين حيث لا تؤمن بإله، وتقوم على التَّجرُّد والزُّهد تخلُّصاً من الشهوات والألم وطريقاً إلى الفناء التَّام، وتقول بالتَّناسخ ومبدأ السببيَّة، وتنكر البعث والحساب، وهي من أكثر الديانات انتشاراً في الهند والشرق الأقصى.

ما الفرق بين الحكمة والروحانية وبين الدين والفلسفة؟

- كنت تقول إن بشراً اتجهوا نحو بحث الحكمة خلال عصور عدة وفي أماكن متنوعة جداً. كيف ولد هذا البحث الكوني؟

- على الأرجح منذ ظهور الإنسان العاقل homo sapiens باللاتينية، طرح أسئلة تدور حول لغز وجوده. أظهرت، غالباً، واقعة دفنه للأموات بطريقة طقسية، مع الطعام أو أسلحة الصيد، وكانت لديه بعض القناعة بالحياة بعد الموت. إن واحدة من أكثر النصوص قِدماً في التاريخ الإنساني، هي ملحمة جلجامش، المكتوبة منذ أربع آلاف سنة تقريباً في بلاد ما بين النهرين، التي طرحت أسئلة تدور حول معنى الحياة والموت والخلود وإمكانية أن يكون المرء سعيداً على هذه الأرض. وبذلك تطرقت إلى أهم أسئلة الحكمة، رغم أنها لم تردّ عليها إلا بشكل جزئي جداً.

في زمن تلك الملحمة، كانت المجتمعات الإنسانية تنظمها أديان مقدسة، وتنقل معتقدات وطقوساً، وتؤسس لمختلف الحضارات العظيمة القديمة، التي بدأت تتكوّن. وقد كان اهتمامها بالفرد أقل من اهتمامها بالجماعة. كانت ملحمة جلجامش النص الأول الذي كشف مخاوف بنية أكثر روحية وفردية من كونها دينية أو جماعية. كان علينا الانتظار أكثر من

ألفي سنة لتنتشر هذه الأسئلة حول المصير الفردي. شهدنا في جميع مناطقنا الثقافية، حوالي منتصف ألفيتنا الأولى، قبل عصرنا الحالي، البحث عن سعادة فردية، وعن حياة جيدة، وعن خلاص أو تحرر. سواء أكان ذلك في الصين أم في مصر، أم في بلاد فارس، أم في بلاد ما بين النهرين، أم عند اليهود، أم في الهند، أم في اليونان، أم في كل مكان نطرح فيه أسئلة حول معنى الحياة الإنسانية، ونهتم كثيراً بمصير الفرد أكثر من مصير المدينة، أو المملكة، أو الإمبراطورية. وبذلك ولد بحث الحكمة مع ظهور أهم التيارات الروحية للإنسانية، كالكنفوشية(١) والطاوية(٢) في الصين، والأبانيشاد(٣)، والجاينية(٤) والبوذية في الهند، والزرادشتية(٥) في بلاد فارس، والنبوءات التوراتية (اليهودية) في إسرائيل(٦)، والفلسفة في اليونان.

- جميع هذه التيارات نشأت تقريباً في الوقت نفسه في مناطق من العالم وفي مناطق ثقافية مختلفة. فهل كانت مستوحاة من بعضها بعضاً؟

- يوجد تداخل بينها أحياناً. فيثاغورس، واحد من آباء الفلسفة اليونانية، سافر دون شك إلى الهند، وتطورت النبوءة التوراتية عند اتصالها مع الحضارة المصرية، والبابلية، والفارسية. لكن هذا الاتصال المباشر نادر، ومن المحتمل أكثر أن عدة أفكار ومخاوف كانت قد ظهرت في اللحظة نفسها في مناطق ثقافية مختلفة، ببساطة، بسبب السمة الكونية للفكر الإنساني. يطرح البشر في كل مكان، أياً كان لون بشرتهم الأسئلة ذاتها، ويتطلعون للسعادة، ويشعرون بالغيرة والشفقة، لديهم الانشغالات القيمية نفسها أو المعضلات الأخلاقية نفسها، فهم يعانون الحزن عند خسارة أحبائهم. وعندما يصل

مجتمع ما إلى درجة معينة من التطور الاقتصادي والثقافي، وتؤمّن فيه الحاجات الأساسية للحياة اليومية والأمان، عندئذ تنبثق الاهتمامات الروحية نفسها.

إن ذلك لا يمر دون طرح مشاكل سياسية ودينية عظمى؛ لأن أولئك الذين يعظمون شأن الحكمة، يحررون بأشكال مختلفة الإنسان من ثقل الجماعة والتقاليد.

- تريد أن تقول: إن الحكمة تحرر الفرد من التأثير الاجتماعي، سواء أكان دينياً أم سياسياً؟ هل تمتلك الحكمة طابعاً ثورياً؟

- إطلاقاً! بقدر ما تدفع الحكمة الفرد لأن يعرف ذاته ويعرف العالم، وأن يطوّر معرفته وعقله، وأن يصبح حراً ويحقق ذاته حسب طبيعته الخاصة، فإن الحكمة مخرّبة بعمق فيما يتعلق بالسلطات الدينية والسياسية، والتي تعمل يداً بيد لتضمن أحياناً عن طريق القوّة، تماسك الأطياف الاجتماعية واستقرارها. إذا بدأ الفرد بالاهتمام بخلاصه وبسعادته الفردية، وإذا طوّر إدراكه ومعرفته، قد يجازف بعدم التزامه بالمعايير الجماعية. أيضاً، إذا فكر أن الحب أهم من القانون وأن كل البشر متساوون لأنهم يتطلعون جميعاً ليكونوا سعداء، ويعيشوا خلاصهم، إذاً فإن مجمل النظام السياسي الديني هو ذاك الذي يخشى الانهيار. من أجل ذلك اضطهد أعظم رواد الحكمة، وبالأحرى قتلوا. فالمسيح (الذي أتى بعد رسل آخرين لبني إسرائيل) حُكم عليه بالموت وبوذا سمّم دون شك؛ لأن الأول والثاني مدحاً رسالة المساواة بين كل البشر وسيادة الرأفة

على القانون، وكان ذلك غير مقبول للسلطات الدينية والسياسية السائدة آنذاك.

لما علّم بوذا بأن كل البشر، سواء أكانوا رجالاً أم نساء، أم أغنياء أم فقراء، يستطيعون الوصول إلى اليقظة عبر عمل روحي شخصي لا علاقة له بالطقوس الدينية، أهمل نظام الطوائف الذي كان يستند عليه (وما زال يستند عليه بشكل كبير) كل المجتمع الهندي، وألغى ادعاء البراهما[٧] بقدرتهم وحدهم على الوصول إلى الخلاص وممارسة الطقوس الدينية الأساسية للحفاظ على نظام العالم.

كما تجاوز المسيح القانون اليهودي ومدح حكمة الحب الكونية، التي تلغي دور الكهنة، وذلك عندما أكد أن الحب أهم من القانون، مارس معجزات كشفاء المرضى في يوم السبت أو كرفض رجم امرأة زانية. وقد حُكم على سقراط أيضاً بالموت لأنه اتُهم بإفساد الشباب وبتهديد دين المدينة. وبما أننا اليوم نميل إلى المزج بين الدين والروحانية، فإننا لم نعد نفهم السمة الثورية للبحث الروحاني وللحكمة.

- هل تستطيع العودة لبرهة حول هذا الاختلاف بين الدين والروحانية؟ فالمفهومان مختلطان قليلاً في ذهني.

- لنبسّط الأمر، لنقل: إن الدين جماعي، وإن الروحانية فردية. يهدف الدين إلى ربط الأفراد بالكيان السياسي نفسه (مدينة، أمة، مملكة) وذلك بجعلهم يتقاسمون إيماناً عبر تعالٍ غير مرئي، يتجاوز قدراتهم.

إن الروحانية، هي جهد شخصي للفرد، الذي يبحث عن خلاص نفسه من كل مؤثراتها الثقافية والفكرية على الأرجح؛ ليبحث عن الحقيقة،

والحب والسعادة الحقيقية. الحياة الروحية تتضمن الفكر (spiritus من هنا تأتي كلمة روحي) والقلب معاً. يطلب الدين طاعة المعتقدات، والعقائد، والقواعد، والسنن. إن الفكر والقلب كليهما يمكن أن يقودا إلى النهاية عينها - السعادة، والعدل، والحب والسلام - لكن يؤديان ذلك بطرق مختلفة.

هذا يعني، أن البُعدين يمكن لهما أن يتعايشا أيضاً: نعرف جميعاً رجال دين روحيين، وطيبين، ذوي ذهن منفتح، في حين يتبع آخرون بشكل أعمى عقائد دينهم دون أن يطرحوا أدنى سؤال، ويستطيعوا، أحياناً، أن يقعوا في التعصب أو العنف الطائفي.

ألخص ذلك كله فأقول إن الإنسان هو حيوان روحي وديني في آن واحد، وأن هناك دون شك طبعه المتفرد مقارنة بالأنواع الحيوانية الأخرى. إنه كائن روحي؛ لأنه يطرح أسئلة حول معنى وجوده، ويحاول الإجابة عنها وتطوير نفسه من خلال قلبه وذكائه. إنه كائن ديني أيضاً، لأنه يخلق مجتمعات قائمة على معتقدات، تؤسسها كيانات غير مرئية، يقوم بعبادتها. يظهر لنا التاريخ الإنساني أنه من خلال أسئلة الإنسان الماورائية، بدأ باختراع معتقدات قبل أن تظهر (بشكل جزئي أو كلي تقريباً) لتطوير تيارات روحية بعيدة عن الدين. إن هذا ما نسميه الحكمة. إن المدارس الفلسفية العظيمة في العصور القديمة حكيمة، لأنها تمدح روحانية مؤسسة على العقل، وليس على المعتقد الديني. الشيء نفسه بالنسبة للبوذية والكونفوشية أو الطاوية، مع أن عناصر التقوى ما زالت في أيامنا حاضرة في هذه التيارات، على اعتبار أنها لعبت دوراً سياسياً في الروابط الاجتماعية

والحب والسعادة الحقيقية. الحياة الروحية تتضمن الفكر (spiritus من هنا تأتي كلمة روحي) والقلب معاً. يطلب الدين طاعة المعتقدات، والعقائد، والقواعد، والسنن. إن الفكر والقلب كليهما يمكن أن يقودا إلى النهاية عينها - السعادة، والعدل، والحب والسلام - لكن يؤديان ذلك بطرق مختلفة.

هذا يعني، أن البُعدين يمكن لهما أن يتعايشا أيضاً: نعرف جميعاً رجال دين روحيين، وطيبين، ذوي ذهن منفتح، في حين يتبع آخرون بشكل أعمى عقائد دينهم دون أن يطرحوا أدنى سؤال، ويستطيعوا، أحياناً، أن يقعوا في التعصب أو العنف الطائفي.

ألخص ذلك كله فأقول إن الإنسان هو حيوان روحي وديني في آن واحد، وأن هناك دون شك طبعه المتفرد مقارنة بالأنواع الحيوانية الأخرى. إنه كائن روحي؛ لأنه يطرح أسئلة حول معنى وجوده، ويحاول الإجابة عنها وتطوير نفسه من خلال قلبه وذكائه. إنه كائن ديني أيضاً، لأنه يخلق مجتمعات قائمة على معتقدات، تؤسسها كيانات غير مرئية، يقوم بعبادتها. يظهر لنا التاريخ الإنساني أنه من خلال أسئلة الإنسان الماورائية، بدأ باختراع معتقدات قبل أن تظهر (بشكل جزئي أو كلي تقريباً) لتطوير تيارات روحية بعيدة عن الدين. إن هذا ما نسميه الحكمة. إن المدارس الفلسفية العظيمة في العصور القديمة حكيمة، لأنها تمدح روحانية مؤسسة على العقل، وليس على المعتقد الديني. الشيء نفسه بالنسبة للبوذية والكونفوشية أو الطاوية، مع أن عناصر التقوى ما زالت في أيامنا حاضرة في هذه التيارات، على اعتبار أنها لعبت دوراً سياسياً في الروابط الاجتماعية

على مدار التاريخ. يوجد أيضاً مفكرون معزولون، كمونتين، أو سبينوزا أو كريشنامورتي[٨]، فأولئك طوروا حكمة، وحاولوا تجسيدها في حياتهم.

- قلت سابقاً: إن جذر كلمة فلسفة تعني «حب الحكمة». بالأحرى أرى أن الفلسفة هي فرع عقلاني جداً؛ لذا فهي لا تملك الكثير، لتلاحق السعادة، كما أنها تملك أقل من ذلك، لتسعى وراء الروحانية!

- إنه في الواقع نموذج الفلسفة، التي تُعلَّم اليوم في المدرسة أو في الثانوية. مع ذلك، عندما ولدت الفلسفة في اليونان حوالي منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، كان لها هدف أساسي هو السعي وراء الحكمة: philo (أحب) sophia (الحكمة). إن هذا السعي نحو الحكمة (يعني نحو حياة سعيدة) قد صنع بمساعدة العقل، الذي يبحث عن الحقيقة، كما يذكر أبيقور: «إن الفلسفة نشاط يزودنا بحياة سعيدة، بفضل رسائلها ومنطقها». يطمح الفيلسوف إلى الحكمة، لكن لا يجب عليه أن يوهم نفسه، من أجل ذلك يستخدم ذكاءه؛ ليتبين ما هو صحيح، أو عادل، وما هو نقيض ذلك. فالفيلسوف إذاً ليس مفكراً ولا أستاذاً (بروفسور) ولا مختصاً، لكنه مغامر الفكر، يبحث عن الوصول إلى حياة جيدة وسعيدة بوعي. كما يلخص أندريه كومت سبونفيل: «الحكمة هي أقصى درجات السعادة مع أقصى درجات الوعي». إن الفلسفة التي تصوّرها القدماء لم يكن هدفها تشكيل اختصاصيين، لكن تطوير الإنسان.

إننا، اليوم، نخلط «الفيلسوف» مع «مؤرخ الفلسف» أو مع مؤرخي الفكر. وإن كانت معرفة أفكار هؤلاء الذين سبقونا ثمينة جداً، فإننا

نستطيع فلسفتها (أي أن نضعها في قالب فلسفي) دون أن نطلع عليها، وذلك حين نندهش، وحين نتساءل، وحين نعقلن الأمور، وحين نبحث عن عيش أفضل حياة ممكنة. إن الأطفال قادرون على ذلك.

كذلك تطورت الفلسفة القديمة لِقرابة ألفي سنة في كنف أهم التيارات شديدة التنوع، والتي كان يجمعها هدف واحد، وهو متابعة الحكمة، وهذه التيارات هي: الأفلاطونية، والأرسطية، والأبيقورية، والرواقية [٩]، والكلبية [١٠]، والشكوكية [١١]، والأفلاطونية المحدثة [١٢]. ولو درّست هذه المدارس كل أنواع فروع المعرفة - المنطق، البلاغة، الرياضيات، الفيزياء، نشأة الكون - فإن الهدف الوحيد لتعاليمها يبقى السعادة وتكوين وعي الإنسان، ليستطيع أن يكتسب قيماً إنسانية قدر المستطاع.

على سبيل المثال، المفهوم الذري لدى الأبيقوريين أو البحث في نشأة الكون عند الرواقيين، ضروري لرؤيتهم الأخلاقية للوجود الإنساني. إن الأبيقوري لا يهاب الموت؛ لأنه يؤمن بأن كل شيء مكوّن من ذرات، وأن روحه تتلاشى مع جسده، لا يوجد عقاب يخشاه من الآلهة أو من القدر post mortem. إن الرواقي، على النقيض، يؤسس فعله على قناعة بامتلاك عقل logo فردي لا يموت، يشكل جزءاً من عقل Logo كوني إلهي. مهما تكن التناقضات النظرية بين المدارس الفلسفية القديمة، فجميعها تطرح فلسفة عملية، ووجودية، وفناً وطريقة حياة. كما يذكّر بقوة (بيير هادوت) وهو مؤرخ كبير للفلسفة القديمة: «الفعل الفلسفي لا يوجد في بنية المعرفة فقط، لكن في بنية «الذات» والكون: إنه تطور يجعلنا أكثر كينونة، فنصبح أفضل. إنه تحوّل يقلب كل الحياة، فيتغير الكائن بما يحققه من إنجازات. فهذا الفعل الفلسفي

يجعله ينتقل من حالة تشكلها حياة زائفة، مظلمة عبر اللاوعي، ومتآكلة بسبب الهموم، إلى حالة تشكلها حياة حقيقية، يصل الإنسان فيها إلى الوعي بذاته، وإلى النظرة الحقيقية إلى العالم، وإلى السلام والحرية الداخلية».

باختصار، أن تتفلسف يعني أن تتعلّم العيش. ولهذا السبب طرحت مدارس الحكمة اليونانية والرومانية على مريديها تمارين روحية متنوعة: مثل ممارسة الانتباه، واختبار الوعي، وتعلّم حِكَم الحياة، والسيطرة على الذات، وعلاج الأهواء، وتذكّر ما هو جيد... إلخ. إن مؤسسي الكنيسة المسيحية استلهموا فيما بعد عدداً من هذه التعاليم، وذلك حين أعادوا إدراجها ضمن منظور ديني.

- لماذا هذا المفهوم العملي والروحي للفلسفة قد تلاشى تقريباً؟ لماذا تحوّل إلى مجرد فرع للمعرفة؟

- اختفت مدارس الحكمة في عصور قديمة عندما اعتنقت الإمبراطورية الرومانية التي ازدهرت فيها تلك المدارس الديانة المسيحية. أغلق الإمبراطور جستنيان عام ٥٢٩ أقدم مدرسة وهي أثينا، وأحدثُ مدرسة هي الإسكندرية، أُسست في بداية القرن الخامس على يد الفيلسوفة هيباتيا[١٣]، واستمرت حتى الفتح العربي عام ٦٤٠. وقد أغلقها المسلمون بدورهم، لكنهم قاموا بترجمة الكتب الأساسية للفلسفة اليونانية، التي لعبت، فيما بعد، دوراً مهماً في إعادة اكتشاف الحكم القديمة، وذلك في بداية عصر النهضة. إذا، إن انتصار الأديان التوحيدية هو الذي حجّم الفلسفة القديمة، فحل الإيمان محل العقل واليقين العقائدي، وبحث الحكمة.

- لكن بالتحديد، ألا يشجع اكتشاف الفلسفة اليونانية في عصر النهضة عودة الحكمة إلى العصر الحديث؟

- إن من أعظم رواد عصر النهضة، مارسيلو فيسينو وبيكو ديلا ميراندولا، اللذين حاولا في الواقع إعادة إحياء الفكر اليوناني والحكمة وحاولا إدماج الإنسان، على خطا القدماء، في الكون: أي إن الإنسان يشكل جزءاً من كلٍ، يرتبط به، ويجب عليه أن يخضع للقوانين الكونية للطبيعة. ففي القرن الثاني عشر، نجد الفيلسوف باروخ سبينوزا الذي استمر، بطريقة ما، في هذه النظرة المتوارثة عن القدماء، وبنى فلسفة أخلاقية مكرّسة تماماً لمتابعة الحكمة. وفي عصر سابق، طرح مونتاني أيضاً حكمةً «مناسبة للإنسان»، موسومة أكثر بالشك، لكنها تتجه نحو السعادة والفرح بشكل متساو. في بداية القرن السابع عشر، تخلص رينيه ديكارت من وهم العلاقة بين الإنسان والطبيعة، وأعاد التفكير بالفلسفة عبر الوعي والذاتية. رغم أنه هو نفسه اهتم أيضاً بالحياة الجيدة، وذلك عبر السيطرة على الأهواء، فإنه خط طريقاً مهيمناً من أجل حداثة فلسفية: وهو طريق يمجّد موضوع الإرادة والتفكير، وهو الطريق الذي سيلتزم به كانط وهيغل، اللذان بقيا أهم مرجعين للفلسفة الحديثة. من جهة أخرى، يعرّف كانط السعادة كمثل أعلى، لا يأتي من العقل بل من الخيال، ويدفن الحكمة.

سيرمى في غياهب النسيان «الطريق الآخر» للحكمة، لاستعادة أسلوب بلاندين كريجل، وهو أسلوب القدماء، ومفكري عصر النهضة وسبينوزا.

تظهر الحكمة بالنسبة إلى معظم المفكرين المعاصرين بصفتها طريقاً وهمياً أكثر من كونه طريقاً قديماً.

- مع ذلك، هل يبدو أن معاصرينا مهتمون بهذا الطريق أكثر فأكثر مثلي؟ لقد ذكرتَ كاتبين، هما أندريه كونت سبونفيل وبيير هادوت، اللذين تأثرا بحكمة القدماء. دون أن تتحدث عن الأهمية المحدثة لدينا في الغرب بالنسبة إلى الحكمة الشرقية، مثل الطاوية والبوذية...

- هذا صحيح، بفضلهما وبفضل آخرين، مثل مارسيل كونش، استطعت أنا نفسي أن أعمق معرفتي بالحكم القديمة، وبسبينوزا أو بمونتاني. لكن الفلاسفة الذين يهتمون بالحكمة بقوا هامشيين في المجتمع العلمي. معظم الجامعيين الذين هم في أعلى درجات الاختصاص بهذا المفكر أو بتلك الحقبة، وبحجة الصرامة العلمية، منعوا أنفسهم من امتلاك أية فكرة حول الحكمة أو ممارسة شخصية لها. ويحدث الشيء نفسه مع عدد كبير من علماء الفلسفة (لكن ليس الجميع) الذين ينقلون تاريخ الفلسفة بأكثر قدر ممكن من الحيادية، فلا يغامرون في ميدان الحكمة، الذي يقتضي التزاماً روحياً ووجودياً، يتشابهان أحياناً، بشكل خاطئ، مع معتقدات دينية.

من جانب آخر، نشهد، في الحقيقة، إعجاباً شديداً بالحكمة من جانب جمهور يزداد أكثر فأكثر. إن كتب الحكماء الرواقيين، كمونتاني أو سبينوزا لم

تكن منتشرة مثل أعمال حكماء الشرق، بدءاً بكتب دالاي لاما. يبدو لي أن هذا يرجع إلى انهيار عقليات دينية وسياسية ومبالغة في الاستهلاك الفردي، كانت قد سمحت بجلب السعادة للبشرية عبر وصفات قد أخفقت جميعها. فجأة، طرح عدد من معاصرينا مرة أخرى سؤالاً عن معنى الحياة، وعن السعادة الفردية والجمعية، وعن الحياة الجيدة الناجحة. إننا لم نعد نعيش مطلقا في المحيط الاجتماعي والاقتصادي والثقافي الذي كان يعيش فيه القدماء. لكن عقل الإنسان وقلبه لم يتغيرا منذ ألفين وخمسمئة سنة، والأسئلة الوجودية التي كان يطرحها وكذلك بعض التمارين الروحية التي كان يمارسها، بقيت تماماً متصلة بنا.

هوامش

١ - الكنفوشية: هي مجموعة من المعتقدات والمبادئ في الفلسفة الصينية، طُورت عن طريق تعاليم كونفيشيوس وأتباعه، تتمحور في مجملها حول الأخلاق والآداب، وطريقة إدارة الحكم والعلاقات الاجتماعية. أثرت الكونفوشية في منهج حياة الصينيين، وحددت لهم أنماط الحياة وسُلم القِيم الاجتماعية، كما وفرت المبادئ الأساسية التي قامت عليها النظريات والمؤسسات السياسية في الصين. انطلاقاً من الصين، انتشرت هذه المدرسة إلى كوريا، ثم إلى اليابان وفيتنام، وأصبحت ركيزة ثابتة في ثقافة شعوب شرق آسيا. ولمّا أدخلت إلى المجتمعات الغربية جلبت الكونفشيوسية انتباه العديد من الفلاسفة الغربيين.

٢ - الطاوية: الطاوية هي تقليد ديني أو فلسفي ذو أصل صيني، وهي تؤكد العيش في وئام مع الطاو، والطاو هو فكرة أساسية في معظم المدارس الفلسفية الصينية. ومع ذلك، فإن معناها في الطاوية هو المبدأ الذي يمثل مصدر كل شيء موجود في الحياة ونمطه ومضمونه. تختلف الطاوية عن الكونفوشيوسية في عدم التشديد على الطقوس الجامدة والنظام الاجتماعي، لكنها تتشابه في أن فيها كامل الانضباطات والسلوكيات التي تحقق «الكمال» من خلال اندماج الفرد مع إيقاعات الكون غير المخطط لها التي تسمى «الطريق» أو «داو».

٣ - الأبانيشاد: الجزء الأخير في مجموعة من الكتابات الهندوسية التي تُسمى الفيدات (جمع فيدا). وتكوّن الأبانيشاد جزءاً أساسياً من مصادر الديانة الهندوسية، كما أثّرت في معظم الفلسفات الهندية. ويُطلق عليها أحياناً اسم الفيدنتا، وتعني الكلمة تجميع الفيدا. أما كلمة أبانيشاد فتعني الجلوس بالقرب من. وهذا يشير إلى أن هذه المادة

كانت سرية في الأصل. كان معظم أجزاء الأبانيشاد مصوغاً في شكل حوار بين معلِّم وتلميذه، وظهرت أهم أجزاء المجموعة بين عامي ٨٠٠ و٦٠٠ ق.م. تأسست عدة مدارس فكرية هندوسية بارزة، منها مدرستا السانخيا واليوجا، على تعاليم الأبانيشاد. هذه التعاليم تتبع فلسفتين أساسيتين ترى إحداهما أن هناك حقيقة أساسية واحدة تُسمى براهما، أو الإله، ويقابله أتمان أو الروح، وعلى ذلك لا يوجد تمييز حقيقي بين الروح والإله حسب معتقدهم.

٤- الجاينية: هي ديانة هندية قديمة تعني المنتصر، وتشير إلى طريق النّصر بعد تجاوز تيّار الحياة والانبعاث من جديد من خلال حياةٍ أخلاقيّة وروحيّة. إن مبدأ الديانة الجاينية هو اللاعنف، أو عدم الإصابة. ويُعتقد حسب هذا المبدأ أنّ على المرء التخلّي عن جميع الأنشطة العنيفة. وكلّ السلوك الديني بدون الالتزام بالامتناع عن السلوك العنيف ليس له أيّ قيمة. لا يهمّ في علم اللاهوت الجايني مدى صحّة التصرّف العنيف أو قابليّته للدفاع عنه، فيجب على المرء ألا يقتل أيّ كائنٍ، و«اللاّعنف هو أعلى واجب ديني على المرء».

٥- الزردشتية: هي ديانة إيرانية قديمة وفلسفة دينية آسيوية. نسبت الديانة إلى مؤسسها زرادشت، وتعد واحدة من أقدم الديانات التوحيدية في العالم، ظهرت في بلاد فارس قبل ٣٥٠٠ سنة. يَعتقد الزرادشتيون بوجود إلهٍ للخير يسمُّونه «أهورامزدا» ربّ الخير، ويقولون: إنه إله النور. وفي عقيدتهم أيضاً يوجد مصدر للشرّ يسمُّونه «آهرمان»، ومعناه الخبيث أو القوى الخبيثة، وهو إله الظلمة. الديانة الزرادشتية تؤمن بالعقاب واليوم الآخر وبالروح ووجودها، ويعتقدون أن الفاني هو الجسد وليس الروح، وأن الروح ستبقى في منطقة وسطى بين النار والجنة في منطقة تدعى البرزخ، واعتقادهم راسخ بالجنة والنار والصراط وميزان الأعمال.

٦- النبوءات التوراتية: هي مجموعة من النبوءات الدينية لدى اليهود عن أحداث لم تقع لكنها واجبة وحتمية الوقوع، وهي موجودة في نصوص وأحاديث دينية

قديمة. أهم النبوءات: نهاية الزمان. وهي ليست من الكلام الجامع، المانع، فهي مكتوبة بما يسمح بتأويلها ليوافق مآرب الناس وغاياتهم ومآربهم في أمكنة وأزمنة مختلفة، وهذا سبب ديمومتها.

٧- البراهما: في الفلسفة الهندوسية، براهما مُوجِدُ الكون وروحُهُ العليا وجوهرُهُ يُعرف بـ «الخالق». وهو المَعْبُود الأَعْلَى في الثَّالوث الهندوسي، الذي يتألَّف من «براهما»: (الخالق) و«بشنو»: (الحافظ) و«سيفا»: (المُغْنِي).

٨- كريشنامورتي: هو كاتب ومتحدث عن القضايا الفلسفية والروحية؛ هندي من ولاية أندرا برديش. تضمنت مادته الثورة النفسية، وطبيعة العقل، والتأمل، والعلاقات البشرية، وإحداث التغيير الإيجابي في المجتمع. وقال: إن هذا التغيير الجذري في المجتمع لا يمكن أن يظهر إلا من خلال تغيير جذري لكن بحرية مطلقة في داخل الفرد. وأكد استمرار الحاجة إلى ثورة في نفسية كل إنسان، وأكد أن مثل هذه الثورة لا يمكن أن تتأتى من قبل أي كيان خارجي، سواء أكان ذلك الكيان دينياً، أم سياسياً، أم اجتماعياً.

٩- الرواقية: مذهب فلسفي، وإحدى الفلسفات المستجدة في الحضارة الهلنستية، والرواقيون يدعون إلى التناغم مع الطبيعة، والصبر على المشاق، والأخذ بأهداب الفضيلة؛ لأن الفضيلة هي إرادة الله. بحيث تركز الفلسفة الرواقية على التناغم كإطار لفهم طبيعة الأشياء وكأسلوب للتخلص من الكدر الذي تسببه الأحاسيس.

١٠- الكلبية: شكلت مجموع فلسفات اعتقد بها الكلبيون، وهي الفلسفة التي أوجدها أنتيستنيس في القرن الرابع ق.م. رفض الكلبيون التقاليد كافة، سواء أكانت باسم الدين، أم الأخلاق، أم كانت تتعلق باللباس، أم اللباقة أم غيرها من القيود الاجتماعية، وأيدوا عوضاً عن ذلك أسلوب حياة لا مادياً وبسيطاً يهدف إلى الفضيلة. بتعبير آخر، الكلبية هي مذهب يقوم على مجاراة الطبيعة وعدم المبالاة بالعرف. في القرن التاسع عشر، تغير مفهوم الكلبية ليعني سلبية شديدة، وارتياباً

عاماً في نزاهة دوافع الآخرين، ولا سيما القيام بالأعمال الأخلاقية. يمكن أن تتجلى الكلبية في الإحباط، وخيبة الأمل وغياب الثقة تجاه المنظمات، والسلطات، ونواحٍ أخرى من المجتمع.

١١- الشكوكية: عموماً هي أي اتجاه شكّي أو ارتياب بخصوص شيء أو أكثر من المعتقدات أو المعارف المفترضة. تتجه الشكوكية غالباً نحو اختصاصات مثل ما وراء الطبيعة أو علم الأخلاق (الشكوكية الأخلاقية) أو الدين (الشكوكية حول وجود الله) أو المعرفة (الشكوكية حول إمكانية المعرفة أو اليقين).

١٢- الأفلاطونية المحدثة: ترتكز الأفلاطونية المحدثة على الجوانب الروحية والكونية في الفكر الأفلاطوني مع مزجها بالديانتين المصرية واليهودية وعلى الرغم من أن أتباع الأفلاطونية الجديدة كانوا يعدّون أنفسهم ببساطة متبعين لفلسفة أفلاطون إلا أن ما يميزها في العصر الحديث يرجع إلى الاعتقاد بأن فلسفتهم لديها الشروحات الكافية التي لا نظير لها لفلسفة أفلاطون والأمر الذي يجعلها مختلفة جوهرياً عمّا كان أفلاطون يكتبه ويعتقد به.

١٣- الفيلسوفة هيباتيا: هي فيلسوفة تخصصت في الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، وهي أول امرأة في التاريخ يلمع اسمها كعالمة رياضيات، كما لمعت في تدريس الفلسفة وعلم الفلك. تأثرت هيباتيا بفكر أفلوطين الذي عاش في القرن الثالث الميلادي، والذي كان يفضّل الدراسة المنطقية والرياضياتية بدلاً من المعرفة التجريبية، ويرى أن للقانون أفضلية على الطبيعة.

السعادة في داخلك

- كما قلت في بداية حوارنا، أطمح باستمرار أن أكون سعيداً بعمق أكثر. أجبتني بأن هذا هو هدف الحكمة. هل ذلك ممكن حقاً؟ وكيف نصل إليه؟

- في الواقع، تشكل قضية السعادة، جوهرَ كل تيارات الحكمة الإنسانية العظيمة. كما كان يذكّر أبيقور، نطمح جميعنا للسعادة، مهما يكن الشكل الذي تأخذه. لكننا أيضاً نعيش تجربة صعوبة الاستحواذ عليها كالماء والهواء. منذ اللحظة التي نفكر فيها في أنّنا نستطيع الاستيلاء عليها تهرب منا. إذا حاولنا الإمساك بها، تهرب منا. أحيانا تختفي حين نتمناها، وتنبثق فجأة في لحظة غير متوقعة. مع ذلك، فقد جربت هذا الأمر، نستطيع أن نكون أكثر سعادة عندما نفكر بالحياة، عندما نشتغل على الذات، عندما نتعلم إنجاز خيارات أكثر حكمة، أو بالأحرى عندما نعدّل أفكارنا ومعتقداتنا أو الملاحظات التي نكونها عن أنفسنا وعن العالم. إن المفارقة الكبرى للسعادة: هي أنها لا تقبل الخضوع لأية سلطة بقدر ما هي قابلة للترويض. إنها تشير إلى القدر أو الحظ مثلما تشير إلى كونها عملية عقلية وإرادية.

بالنسبة إلى القدماء، سواء في الهند، أم في الصين أم في اليونان، تتشابه الحكمة مع البحث عن حالة رضا شاملة ودائمة في الوجود الذي لا يتعلق

بمخاطر الحياة، يعني أحداث العالم الخارجي. إذاً، فالحكمة تتحد مع فكرة السعادة المتصورة بصفتها حالة داخلية. انطلاقاً من ازدواجية تجربة اللذة في الغالب، كوّن الفلاسفة القدماء مفهوم السعادة هذا قائلين: إن اللذة هي الرضا بحاجة ما أو برغبة ما، لكنها لا تدوم بل تتعلق بأسباب خارجية. إن الحكيم نفسه يتطلع إلى خلق حالة من الرضا، تدوم ولا تتعلق كثيراً بأسباب خارجية فقط (الشرف، والعلاقات الإنسانية، والغنى... إلخ). على سبيل المثال، بالنسبة إلى أبيقور، فإن هذا المثل الأعلى يمكن بلوغه بفضل الفكر العملي phronesis الذي يساعدنا على الاعتدال والإحساس باللّذات من أجل البقاء في حالة صفاء، وغياب الاضطراب ataraxie. بالنسبة إلى بوذا، يتعلق الأمر بالتخلي عن رغبة الارتباط بالأشياء، التي تولّد الإحباط والألم، وبذلك فإن الطريقة الوحيدة للوصول إلى حالة السعادة، تكون عبر اليقظة، يعني الوعي بأنني لست الأنا التي أتحد معها بشكل عفوي.

نستطيع أن نعرّف المثل الأعلى للحكمة بالطريقة الآتية: إن الحكيم يغير رغباته ليجعلها منسجمة مع العالم، أي بعبارة أخرى مع الواقع، وهذا أفضل من البحث عن انسجام العالم مع رغباته. إنه يتعلم حبّ الحياة بطريقة غير مشروطة لا حين تكون ملائمة بالنسبة إليه فحسب. إن هذا هو المثل الأعلى للحكمة، والذي لم يعد يقتنع به معظم المثقفين المعاصرين، وهو ما أردت إعادة تأهيله؛ لأن هذا هو بحثي منذ قرابة أربعين سنة.

- إننا بالتأكيد بعيدون جداً عن مفاهيم معاصرة للسعادة، التي تتجه بشكل كبير نحو ما نملك أكثر من اتجاهها نحو كينونتنا. يوجد سوء فهم كبير، يحتاج إلى توضيح حين نتكلم عن السعادة...

- إن المثل الأعلى للحكمة ومفهوم السعادة المتداولين هما في الواقع يناقضان نظرة السعادة المعاصرة التي باتت الأكثر انتشاراً في مجتمعاتنا المادية والاستهلاكية: أي أن تكون الأفضل، والأكثر كفاءة، والأغنى، وأن تكون أكثر شهرة... إلخ. عبر هذا التحديد المعاصر لامتلاك «الأكثر دائماً» فإن الحكمة تعارض البحث عن «الكائن الأفضل» (هنا الأفضل على المستوى المادي). إن السعادة تبحث في بنية الكائن أكثر من بحثها في طبيعة ما يملك. سأضيف أن بحث الحكمة هو بحث شديد الاحتياجات. فهو يتطلب اكتساب ثقافة، وتعمقاً في التفكير، وحسن استخدام العقل وتحفيز الإرادة، وإعادة توجيه الرؤية والرغبات بشكل صحيح... إلخ. باختصار، إنه بحث طويل وشاق بالنسبة إلى تناقضات ما يبيعه دجالو السعادة المعاصرون من وصفات سهلة وسريعة. سأؤكد أيضاً أنني مستاء جداً من الأوامر الخاصة بالسعادة، التي باتت كلمة للنظام المعاصر، وهي مستنكرة بشدة لدى باسكال بروكنر.

في الواقع لاحظ كاتب النشوة الدائمة بدقة أن «حق» السعادة تحوّل إلى «واجب» وفجأة إلى عبء منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إن الإنسان المعاصر «محكوم عليه» بأن يكون سعيداً و«هو مسؤول عن تعاسته الخاصة إذا لم يستطع الوصول إليها. [...] على الأرجح، نشكل المجتمعات الأولى في التاريخ، التي تجعل الناس تعساء؛ لأنهم افتقدوا السعادة [...] مثل مأساة المسيح، حين سعى من أجل خلاص البشرية، ومن أجل ذلك أهلك نفسه، وقد تشكلت، من خلال ذلك الأمر، المأساة العلمانية للنجاح والفشل». من المهم أن ندرك أن مثل تلك الأوامر للسعادة لا تؤدي إلا إلى

التعاسة، وفوق ذلك فهي سعادة متعلقة بالمعايير العصرية للنجاح. إنها بلا شك إحدى التفسيرات لدى عدد متزايد من الأشخاص، الذين أصيبوا بالكآبة؛ لأنهم لم يجدوا جواباً عن تعريفات محددة عصرية لتحقيق الذات: إنها العبارة الشهيرة «من المتعب أن تكون أنت» التي وصفت بشكل جيد من قبل الطبيب النفسي آلان إيرينبرغ.

- أفهم جيداً أن الحكمة تدعو إلى السعادة بصفتها حالة كينونة شاملة ومستمرة. لكن بعض الكتّاب المعاصرين، مثل لوك فيري، يشيرون، متّبعين كانط، إلى التباين الجذري الموجود بين السعادة والتعاسة، وبين الخير والشر.

- لمّا أكد بوذا أن «كل شيء مؤلم»، ذكّر بأن الحياة، منذ الولادة حتى الموت، مكوّنة من سلسلة من التجارب المؤلمة. وحين نعيش لحظة سعيدة، فإنها لا تدوم طويلاً. يقول لنا بوذا أيضاً: إن «كل شيء زائل». لا شيء في هذا العالم مستقر، ومستمر، وثابت إلى الأبد. وينطبق الشيء نفسه على رغباتنا. أيضاً، إننا نعاني من عدم امتلاكنا ما نرغب فيه، ثم نتألم خائفين من ضياع ما نملك، ونتألم أيضاً من ضياع ما حصلنا عليه. إذاً، نعم، في حياتنا اليومية، الشر، في الواقع، أكثر حضوراً من الخير، وإن تغيّر ذلك من شخص لآخر تقريباً. وهذا هو السبب الحقيقي، الذي دفع بوذا، مثل كل حكماء الإنسانية، إلى البحث عن طريق بعيد عن الألم. ترفض الحكمة الاستسلام لحتمية وجود الألم في كل مكان. للمرة الثانية فإن الحكمة متطلبة، تقترح طريقاً يسمح بتطوير مشاعر داخلية، تقوم على الصفاء أو على

الفرح، وهي مستقلة عن مخاطر الحياة بكل ما تحويه من مرتفعات ومنخفضات. إن الحكمة إذاً هي جواب فوري، يقرّ بعدم وجود انسجام بين السعادة والحزن.

- يؤكد بعض المفكرين المعاصرين، أن السعادة، خلافاً للألم، من المستحيل تعريفها على الأرجح، في حين يسهل تحديد الألم والتعرّف إليه...

- في حياتنا اليومية، يمكن التعرف إلى السعادة والألم بالنسبة إلي وتعريفهما تماماً: بشكل عام، إنني سعيد عندما أحب الحياة التي أعيشها، وأنا حزين عندما لا أحب الحياة التي أعيشها. يوجد أيضاً لحظات سعادة كثيفة، عندما، على سبيل المثال، تتحقق رغبة عميقة ما: مثل لقاء غرامي، وولادة طفل، ونجاح في الامتحان، ونجاح مهني... إلخ. بالطريقة نفسها، يوجد لحظات كثيفة للحزن: مثل موت قريب، ومرض خطير، وفشل مهني... يمكننا أن نشير بدقة إلى السمة: تلك المتصلة بالسعادة: التي تختلف حسب الثقافات، والأفراد، ولدى كل شخص حسب مراحل حياته. في غالب الأحيان، هي تأخذ شكل ما لا نملك: بالنسبة إلى المريض، السعادة تكمن في الصحة؛ بالنسبة إلى عاطل عن العمل، فإن السعادة في العمل. يضاف إلى عدم الانسجام هذا عامل موضوعي: فالفنان سعيد في ممارسة فنه، والمثقف في استخدام مفاهيمه، والعاطفي في علاقته الغرامية. أشار فرويد بدقة إلى أن «التكوين النفسي للفرد سيكون حاسماً. فالإنسان الذي تسود لديه الغريزة الجنسية سيعطي الأولوية للعلاقات الغرامية مع

الأشخاص الآخرين؛ وأما النرجسي فسيكتفي بالأحرى بذاته، وسيبحث عن أفراحه الجوهرية عبر مظاهر نفسية مكثفة؛ إن الإنسان الفاعل سيظل مرتبطاً بالعالم الخارجي الذي يستطيع من خلاله وضع طاقته على المحك». وهذا هو أحد الأسباب التي من أجلها لا نجد «وصفة» للسعادة صالحة للجميع.

لكن هذه السمة النسبية والموضوعية لا تمنع على الإطلاق تحديد معنى السعادة، لا بصفتها شعوراً عابراً مريحاً فحسب (فهذا سيكون تعريف اللذة)، بل بصفتها حالة كينونة، ترى الأمور في فترة محددة ومجال معين. نخبر أنفسنا بأننا «سعداء» أو «راضون» عن حياتنا لأنها تعطينا في المجمل - وبشكل كلي- لذة؛ ولأننا وجدنا بعض التوازن في تطلعاتنا المتنوعة، وبعض الاستقرار في مشاعرنا وانفعالاتنا، وحصلنا على رضا في مجالات أكثر أهمية في حياتنا؛ كالمجال العاطفي والمهني والاجتماعي والروحي. على النقيض، نقول لأنفسنا: إننا «تعساء» و«غير راضين» عن حياتنا إذا زودتنا بقليل من اللّذة، إذا مزّقتنا طموحات متناقضة، إذا كانت عواطفنا (مشاعرنا وأحاسيسنا) غير مستقرة ومؤلمة بشكل عام، أو إذا أحسسنا بشعور قوي بالفشل العاطفي أو الاجتماعي. نلاحظ أنفسنا عبر مجمل المواقف والحالات بأننا سعداء أو تعساء، فنجد في فترة معينة من الوقت صعوبة في استدعاء تلك المشاعر. من أجل ذلك أعرّف السعادة بأنها وعي بحالة رضا شاملة ومستمرة لوجودنا.

- لكن ألا تبقى هذه الحالة غير مؤكدة؟ ألا يمكن لسعادتنا أن تتحول فجأة إلى تعاسة بتأثير مصائب الحياة؟

- بالتأكيد، هذه السمة المؤقتة والزائلة للسعادة كانت قد وصفت كثيراً من قبل بوذا وفلاسفة القدماء على نقيض كانط والفلاسفة النقديين. من هنا تحاول الحكمة أن تعطي معنى آخر للسعادة: إن السعادة لم تعد تتمحور حول المفهوم البسيط لحب الحياة التي نعيشها، بل هي حب الحياة في مجملها. حبها في كل أحوالها، في صعودها ونزولها، في لحظاتها الملائمة وغير الملائمة، مع نصيبها من الفرح والحزن. إن هدف الحكمة، دون أن ننفي السمة غير المتوقعة والهشة للسعادة، هو محاولة جعل هذا الهدف أكثر عمقاً وأكثر ديمومة قدر المستطاع، بعيداً عن مخاطر الحياة، وعن الأحداث الخارجية، وعن انفعالات إيجابية أو سلبية في حياتنا اليومية. إنه محبة ما هو موجود.

أؤكد مرة أخرى حقيقة أن الحكمة تشكل مثلاً أعلى وهدفاً نسعى لبلوغه، ولكن لا يمكن لها أبداً أن تتحقق كلياً. وبالنهاية، هذا لا يهم! إن ما يهم، هو التوجه نحوها، أي أن أشتغل على ذاتي؛ لأكون قادراً أكثر فأكثر على أن أكون سعيداً. إن زيادة ميلنا نحو السعادة تتعلق، في الوقت نفسه، بتقليل قابليتنا للتعاسة. في الواقع، لدينا جميعاً بعض النزوع لنكون سعداء أو تعساء. وهو ما يسميه عدد من علماء الاجتماع الأمريكان بـ «المعدل الثابت للسعادة». في البداية، يتعلق ذلك، كما عبّر جيداً شوبنهور عن أحاسيسنا بالآتي: هناك أشخاص متفائلون، وآخرون متشائمون، وأشخاص فرحون وآخرون تعساء.

بالإضافة إلى المزاج الثابت الذي تولدّه الوراثة، ثمة تأثيرات يولّدها الطفل الصغير في داخلنا، تخضع لها أحاسيسنا أيضاً: البعض يفتقدون تقدير

ذواتهم كل حياتهم؛ لأن أهلهم قد منحوهم صورة مهينة لأنفسهم. سيكونون أقل قدرة على تحصيل السعادة من أولئك الذين، هم على نقيضهم، يملكون ثقة بأنفسهم وبالحياة.

من أجل هذا السبب، كما يذكّر أرسطو، تتعلق السعادة بالحظ في قسم كبير منها (الوراثة، الوسط الاجتماعي) ولكنها تتعلق في قسم كبير أيضاً بأن نشتغل على أنفسنا؛ لنزيد قدرتنا على أن نكون سعداء. هذا القسم من السعادة، الذي يتعلق بنا، يمكن له أن يتطوّر حسب خيارات حياتنا، وحسب النظرة التي نملكها عن أنفسنا وعن الآخرين وعن العالم. أيضاً نستطيع أن نستمر في الاقتراب أكثر من مثال الحكمة - الفرح أو الصفاء الدائم- دون أن نصل إلى هذا المثال بالضرورة أو أن نكون مستقرين على حالة الهناء هذه للأبد. وشيئاً فشيئاً نستطيع أن نكون كلياً ودائماً، وإن تمكنت مآسي الحياة من الوصول إلينا وعكرت سعادتنا بشكل مؤقت. على كل حال هذه هي ثمرة تجربتي.

- ذكرتَ عدّة مرات أن الحكمة تكمن في البحث عن حالة رضا، إذ لم تعد تتعلق بالأحداث الخارجية. فهل الحكيم يشعر بالسعادة مهما حصل له؟

- في الواقع، إن سعادة الحكيم لم تعد تتعلق أساساً بأحداث عالمه الخارجي، التي تقع دوماً مصادفة، لكنها تتعلق بتناغم عالمه الداخلي. فهو سعيد؛ لأنه قد عرف إيجاد السلام أو الفرح في داخله. فبدلاً من رغبة الحكيم في أن يكيّف العالم وفق رغباته، فهو يكرّس

جهده في تغيير نفسه. فعبر هذا التغيير، تصبح السعادة ممكنة. إن عائق السعادة ليس الواقع، بل التصور الذي نملكه عنه. إن الواقع نفسه يمكن أن يُلاحظ مختلفاً من خلال شخصين: الأول يهنئ نفسه به، والآخر سيكون تعيساً به. شخص ما يمكن أن ينظر إلى مرض خطير كأنه لعنة القدر، في حين نجد شخصاً آخر، بعيداً عن الألم، الذي يعانيه في الحاضر، ويجد فيه وسيلة ليعيد النظر في معاناته، كي يغير هذا الأمر أو ذاك في حياته، دون أن يتخلى عن سلامه الداخلي. أمام عنف ما، يشعر بعضهم بالحقد، وبالرغبة في الانتقام، في حين نجد بعضهم لا يبدي أي استياء. إن الحكيم الرواقي إيبيكتيتوس يؤكد: «تذكّر بأن من يوقعك في الخطأ، لا يعني أنه يسيء إليك أو يصفعك، لكن ما تملكه من رأي عن نفسك، يجعلك ترتكب خطيئة. أي، إذا جعلك أحد تغضب، فاعلم أن حكمك الخاص على نفسك، مسؤول عن غضبك».

إن ما يوضح أكثر هو هذه القصة القصيرة الصوفية: «كان هناك رجل عجوز يجلس عند مدخل المدينة. جاءه غريب من بعيد، وسأله: «لا أعرف هذه المدينة، كيف هم الناس الذين يعيشون فيها؟» فأجابه الرجل العجوز بسؤال: «كيف هم سكان المدينة التي أتيت منها؟» فأجابه: «أنانيون وأشرار، ومن أجل هذا السبب رحلت» فأجابه العجوز: «سترى على شاكلتهم هنا». بعد برهة، اقترب غريب آخر من العجوز، وقال له: «أتيت من بعيد، قل لي كيف هم الناس هنا؟» فأجابه العجوز: «كيف هم سكان

المدينة التي أتيت منها؟» فأجابه: «طيبون ومضيافون، لدي فيها أصدقاء كثر وقد عانيت في تركهم» فابتسم له العجوز وقال: «سترى على شاكلتهم هنا» وكان هناك بائع جِمال قد تابع المشهدين من بعيد. فاقترب من العجوز قائلاً: «كيف يمكن لك أن تقول للغريبين أمرين متناقضين؟» فأجابه العجوز: «لأن كل واحد منهما يحمل عالمه في قلبه. إن النظرة التي نحملها عن العالم ليست العالم ذاته، بل العالم الذي نستشفّه. إن الإنسان السعيد في مكان ما، سيكون سعيداً في كل مكان، وعلى النقيض، فإن الإنسان التعس في مكان ما، سيكون تعسا دوماً».

قل نعم للحياة

- في الواقع أعرف أشخاصاً، على قلتهم، يبدون سعداء دائماً، أي أنهم لا يشتكون بتاتاً، ويرون دوماً الجانب الجيد من الأمور، إنهم، هم أنفسهم، من يواسون أقاربهم، إذا ألمت بهم مصيبة أو معاناة. إذاً، هل هم حكماء في المعنى الذي تقصده؟

- بلا أي شك. بعض الأشخاص يملكون هذه الحكمة بطريقة فطرية. إنها، إن صح القول، مطبوعة في مزاجهم. هناك أشخاص، كرماء، ومتفائلون، وواثقون، وسعداء بطبيعتهم. إنه لحظ عظيم، لأن هذه هي الصفات المطلوبة للحصول على حياة جيدة وسعيدة، وهؤلاء الأشخاص يقومون بكثير من الأمور الجيدة لمن يحيط بهم. لكن معظم الأشخاص ليس لديهم هذا الحظ، والحكمة بالنسبة إليهم بوصلة ثمينة؛ لأنها ترشدهم إلى طرق ووسائل ليكونوا أفضل وأكثر سعادة. إن الحكمة تدعونا للتوقف عن اتهام الحياة، أو الآخرين، إنها تدعونا إلى أن نمسك بيد الحياة ونفهم أن معظم آلامنا، يمكن تجنبها، إذا غيرنا التصور الذي نملكه عن أنفسنا أو عن العالم. أقول جيداً «آلامنا» وليس «أوجاعنا»؛ لأن الوجع كوني ولا يمكننا تجاوزه. لكن عندما يضاف إلى الوجع الجسدي أو الأخلاقي الغضب، والحزن، والحقد، والاستياء، والرفض، والتحدي،

أو الشكوى، فإن الألم النفسي والروحي سيضاف إذاً إلى الألم الواقعي الذي نشعر به. إذا لم نستطع تفادي الوجع، فإننا نستطيع تفادي الألم عبر توجيه إرادي وإيجابي لقلبنا وعقلنا. إن الحكمة لا تعني الابتعاد عن الألم، بل تحويل الألم إلى هدوء وصفاء.

- كيف نصل إلى ذلك؟

- لا يوجد ست وثلاثون ألف طريقة لذلك: يتعلق الأمر بطريقة وحيدة هي أن نقول «نعم» للحياة، يعني أن نحبها وأن نقبل الواقع كما هو، وليس كما نرغب في أن يكون. إنه طريق القبول، والرضا، الذي يفترض حباً غير مشروط للحياة. «وأنا، أحب الحياة» كان يقول مونتين. إنه باب الدخول إلى كل حكمة، وإلى كل وجود سعيد عميق ومستمر، مهما تكن الأحداث التي تحصل. فإن الحكمة لا تعني العيش فوق سحابة صغيرة، أو في عالم جيد ومنظم، إن هذا غير موجود؛ بل إن الحكمة هي مزيج من المأساة والسعادة. إنها قبول الحياة وحبها بعسرها ويسرها، وبلحظاتها الجيدة والسيئة، وبأفراحها وهمومها. إنها حب كل الحياة، بجانبها الصعب ومحنها.

- **لكن قول «نعم» لكل شيء، القبول بكل ما يأتي، أليس موقفاً حتمياً؟ ذلك يذكرني بالأتقياء الذين يستسلمون لكل ما يحصل لهم؛ لأنها «إرادة الله»...**

- أنت على حق، في الوهلة الأولى، تبدو الحكمة مختلطة مع موقف ديني حتمي. لكن مع ذلك يوجد اختلاف حقيقي بين الأمرين. إن الحكمة، حسب كلمات أبيكتيوتس، تدعونا لنفرّق بين ما هو متعلق

بنا وبين ما هو غير متعلق بنا. عندما يحدث أمر ما، مرض خطير، على سبيل المثال، لم نختره، فإنه رغم كل شيء يتعلق بنا، ومن جهة، فإننا نسعى للعلاج، ومن جهة أخرى، نحاول أن نتحرك بأفضل ما يمكن إزاء هذا الاختبار، بدل أن نجعله يدمرنا. إذاً نبدأ بقبول ما هو حتمي، والذي لا يتعلق بنا، إننا مرضى، وهذا أولى من إنكاره. ثم نبحث عن التحرك وفق ما نستطيع القيام به، وهو إيجاد العلاج الجيد والتعامل بإيجابية قدر ما نستطيع إزاء هذه الحالة. بالنهاية، إذا لم نتعافَ رغم كل جهودنا، ينبغي، إذاً، أن نقبل مرة أخرى الحتمية بأننا لا نستطيع تفادي المرض المزمن أو الموت. إن الحكمة تقترح علينا قبول ما هو موجود، ومالا نستطيع تغييره، وتقترح كذلك التصرف إزاء ما يمكن تعديله، فنغيّر في داخلنا (أي عواطفنا وتفكيرنا) ونبحث عن تغيير محيطنا (كالبحث عن دواء لشفائه). هذا هو الفرق الأساسي، فرق يؤدي إلى الاختلاف مع الحتمية الدينية، التي ترى، غالباً، أن كل ما يحدث جيد، وتصرّ أحياناً على عدم إرادة تغيير نظام الأشياء. لقد كنت منذهلاً خلال سفرتي الأولى إلى الهند، إلى كالكوتا، من رؤية موت البؤساء في الشارع وسط لا مبالاة عامة. فهمت أن تصرفاً كهذا كان مرتبطاً بالمعتقد الديني الهندوسي: الذي يعني أن ما يحصل في هذه الحياة هو ثمرة وجودنا الداخلي، فلا تنفع محاولة النضال لتغيير مجرى وجودنا أو مجرى العالم. إذا مات إنسان بشكل بائس، فهذا ما يستحقه، ومن العبث مساعدته. هذه الحتمية أثارت غضبي ورأيت نفسي أعمل متطوعاً مع مؤسسة المبشرين بالخير التابعة للأم

تيريزا، التي تستقبل هؤلاء الذين على وشك الموت، فتجلبهم إلى مكان للعناية بهم ومرافقتهم حتى النفس الأخير. حين نستطيع التصرف لنساعد شخصاً ما، ولنخفف ألماً ما، ولنكافح ضد ظلم ما، فإن الحكمة تدعونا لهذا التصرف؛ لأنها تضع الحب، والعطف، والعدل في قمة كل الفضائل.

فلنقم بما يتعلق بنا، فلنتحرك من أجل الحفاظ على صحتنا وسعادتنا، ومن أجل أن نتحسن على المستوى الأخلاقي والروحي، ومن أجل أن نسهم في بناء عالم أفضل. لكن عندما لا نستطيع فعل شيء، إذا تصادمنا مع قوّة خارجية ولم نملك لمواجهتها أية وسيلة دفاعية، فمن الأفضل القبول بفرح بما حصل، بدل أن ننكره، ونقمعه أو نغرق في الاستياء منه، أو نغضب، أو نحبط، أو نشتكي. عندئذ سيبقى قلبنا وعقلنا في حالة سلام، وإن كان الألم يكمن في ذلك.

وهذا ما شرحه أبيكتيتوس من خلال التعبير المجازي للكلب المربوط بعربة، يجرها ثوران (يمثلان قوة القدر). عندما يكون لدى الكلب الرغبة في الدوران إلى اليمين، في حين أن العربة تدور إلى اليسار، فلن يستطيع الكلب مقاومة قوة الثورين: إما أن يقبل أتباعها، وهو يرافق حركاتها، يعني أن تنسجم رغبته مع رغبتها، أو أن يقاوم، فيقاد رغما عنه إلى أفظع الآلام.

- وإن فهمت بشكل أفضل ما يميز القبول الديني الحتمي عن الحكمة، فهذا يبدو لي مع ذلك أنه من الأفضل الإيمان بالله أو بخلود الروح؛ لنكون قادرين على أن نقول مثل هذه الـ «نعم» للحياة. لأننا نستطيع

عندها أن نقبل بامتحانات فظيعة ونحن نفكر بأن لها معنى أو أننا سنكون سعداء في الآخرة.

- من المؤكد أن الإيمان بالحياة بعد الموت يساعد كثيراً على تخطي امتحانات الوجود. إن هذا يعطي للمتدين أملاً وشعوراً بأن ما سيحصل له، بما في ذلك الموت وتحديداً موت أقربائه، ليس نهاية كل شيء. ويمكن له أن يعطي معنى لذلك. بعض الروحانيين الشرقيين يؤكدون أن عقلنا لا يموت وأنه يتجسد في جسد آخر حتى حالة التحرر الأخير، التي يدركها بصفتها حالة نعيم لا يمكن تعريفها؛ لأن المؤمنين بإله واحد لديهم أمل بحياة خالدة بالقرب من الله. يؤمن الرواقيون بأن عقلنا لا يموت، وقد استطاع سقراط أن يشرب بهدوء سمّ الشوكران القاتل؛ لأنه كان مقتنعاً بأن روحه ستعيش سعيدة مع الأرواح المستقيمة في الآخرة. نعم، من الواضح بأن الإيمان بخلود الأرواح يشكل مساعدة قوية وحاسمة لتحمّل أعباء هذه الحياة. من جانب آخر، أشارك (سقراط) هذه القناعة بأن عقلنا خالد، حتى وإن لم أملك أي يقين حول ما سيحدث بدقة بعد موت الجسد. وقد ساعدني هذا كثيراً لتحمل وفاة أناس عزيزين عليّ، لأن في أعماقي قناعة وحيدة هي أن طريق حياتهم سيستمر في مجال آخر. لا أربط هذه القناعة بأي إيمان ديني محدد: لقد كانت دوماً مدونة في أعماق روحي بصفتها يقيناً، كما أنه بالنسبة إلى أشخاص آخرين فإن لديهم دوماً هذا اليقين بعدم وجود شيء بعد الموت. أشعر بأنني أشبه قليلاً هؤلاء الهنود الذين نسألهم: «ما هو

نقيض الموت؟» فيجيبون بشكل عفوي: «الولادة»، في حين أنّ معظم الشرقيين يجيبون: «الحياة». لا أعارض الحياة والموت، لكنني أعتقد أن الولادة والموت لحظتان ضروريتان في الحياة، إنهما ممران لحياة الروح، التي بدأت قبل ولادتنا على الأرض، وستستمر بعد تلاشي جسدنا... لا أعلم إلى أين.

لكن هذا الموقف بقبول كل ما هو قائم، هذه الـ «نعم» للحياة، يمكن أن يُعبّر عنها في إطار حكمة مادية وملحدة. إن أبيقور وأحد أهم مريديه، مثل لوكريتيوس، لا يؤمنان بالله ولا بخلود الروح. مع ذلك، يمدحان هذا الموقف بالقبول السعيد لما يحصل، وبأننا لا نستطيع تجنبه، من أجل المحافظة على سلام الروح. بطريقة أو بأخرى، موقف مونتين مماثل ونستطيع وصفه بمفكر غير مؤمن، وحتى نيتشه الملحد حقاً. على خطى القدماء، يمدح نيتشه قبولاً سعيداً لكل ما هو حاصل، دون استثناء. يدعونا لنقول «نعم» Je sagen، لنحب القدر: amor fati. بالنسبة إليه، يشكل الفرح والحزن جزءاً من الحياة، وإذا أردنا أن نعيش حياة رحبة، وليس بطريقة محدودة، يجب علينا أن نقبل كل شيء يأتي من الحياة: الأفراح، والآلام، واللذات، والأوجاع. يدعونا لنحب الحياة كما نحب الموسيقى: نقدّر عملاً موسيقياً حين يتناوب فيه الصوت والصمت، ولحظات حماسية وسعيدة، allegro، ولحظات أكثر هدوءاً وحزناً، adagio، أو بالأحرى مقاطع متناسقة جداً ومقاطع أكثر تنافراً. إنه تباين اللحظات السعيدة والحزينة، والمضيئة والمضطربة، التي تؤسس لجمال الحياة: «عبارتي لما هو عظيم لدى الإنسان هو amor fati: أي ألّا أرغب في شيء آخر غير ما أملك في الحاضر، لا ما هو

أمامي في المستقبل، ولا ما هو ورائي في الماضي، ولا في قرون وقرون. أي الرضا بتحمل ما لا نستطيع تجنبه، وألا نخفيه أيضاً [...] بل أن نحبه...» إن الحكمة التي تؤمن بخلود الروح، أو التي لا تؤمن به، تنسجم مع السعادة والألم عوضاً عن معارضتهما.

- يبدو لي من الممكن قبول ما هو حاصل، وحب الحياة عندما لا نواجه محناً جمّة. لكن، كما يتساءل لوك فيري: كيف نحب الحياة عندما يعذّبنا جلّادها؟

- وإن كانت هذه الحالة هي القصوى، ولو أن قليلاً من البشر سيضطرون لعيش هذا النوع من التجارب المأساوية، فإنه من الضروري، في الواقع، أن ننظر إليها وجها لوجه؛ لأن ذلك يسمح لنا بالوصول إلى بداية تجعلها منطقية، كما يسمح برؤية إذا ما كنا نستطيع الدفاع عنها، وكيف. إن قول «نعم» للحياة يجب أن يُفهم بطريقة شاملة، كما استحضرتُ سابقاً: إنه حب الحياة بكل ألوانها، وبكل إيقاعاتها، وبكل تناقضاتها. إذا كنّا متعمقين في هذه النظرة، حين تحصل محنة رهيبة، كالتعذيب، فستتعامل معها بطريقة مختلفة. إن هذا لن يتعلق بحب هذه المحنة أو الاستمتاع بهذا الألم، مهما كان مضنياً، لكن بصفته جزءاً من كل. إننا نقول «نعم» للكل، لمجموع حياتنا، ومن ثمّ لمحنتنا أيضاً، وإنّ كنا نريد اجتنابها. لمّا شعر المسيح بالألم في قمة جبل الزيتون، تماماً قبل محنته، قيل لنا: إنه كان يتعرّق دماً لكثرة ما كان قلقاً، وكان يتوسل إلى الله بأن يبعد عنه هذه الكأس. ثم غيّر رأيه وقال: «إنها ليست إرادتي، بل

إرادتك». لم يكن لديه أية رغبة في العذاب والموت، لكنه قال «نعم» لقدره: إنه amor fati السلام الداخلي، الذي رغم الألم، جعله ينتصر بالنهاية على القلق.

كنت ككثير من الناس متأثراً بالرسائل التي كتبتها الشابة الهولندية إيتي هيلسم عندما كانت في مخيم الاعتقال في ويستربوك، وذلك قبل ترحيلها منه، ووفاتها في أوشويتز. أكدت أن جلّاديها لم يستطيعوا بلوغ سلامها الداخلي وفرحها. والسبب هو: «إن الحياة والموت، والألم والفرح، وبثور الأقدام الميتة، والياسمين خلف المنزل، والاضطهاد، والأعمال الوحشية، التي لا تعد ولا تحصى، وكل شيء، كل شيء فيَّ يشكل وحدة قوية، أقبلها ككل لا يجزّأ» قلت سابقاً إن الحكمة هي مثل أعلى لا يمكن بلوغه أبداً. لكن شهادة إيتي هيلسم تظهر إمكانية بلوغ الحكمة أحياناً. وهذا ما ذكرتُه في كتابي، السعادة رحلة فلسفية، وقد أجابني صديقي لوك فيري إن إيتي هيلسم كانت «ذُهانية». أعتقد نقيض ذلك، فهي تأخذ على عاتقها الواقع بوضوح تام، كل الواقع، عبر نظرتها للحكمة والحب؛ التي جعلتها تتحمل ما لا يمكن تحمله.

مرة أخرى، السعادة لا تتعارض مع الألم. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نكون هادئين، أو فرحين، ونحن نتجاوز ألماً عظيماً. يمكن لامرأة تلد، وهي تتألم، أن تعيش في الوقت نفسه حالة فرح بولادة طفلها. كل شيء يتعلق بمسألة نظرتنا إلى الأمور: من الممكن تجاوز الألم عندما نوسع النظرة، وحين نعتبر أن الحياة، في مجملها، «كل لا يمكن تقسيمه»، وكما تقول إيتي، التي تتبع خطا إيبيكتوتس والحكماء البوذيين: «إن العائق الكبير الذي يواجهنا، هو التصور الدائم وليس الحقيقة».

كن ذاتك وتوافق مع العالم

- فهمتُ جيداً، بعدما تبادلناه من حوار سابق، الهدف الذي تريده. حدثني، الآن، عن الطريق إليه: كيف يمكنني أن أصل إلى هذه السعادة العميقة والدائمة؟

- كما يذكّر سقراط، يبدأ طريق الحكمة بمعرفة الذات. اطرح على نفسك الأسئلة الآتية: من أنا؟ ليس هويتك الجسدية أو العائلية فقط: أنت إنسان، تدعى... وأنت ابن أو ابنة... ليس فقط هويتك الثقافية: أنت فرنسي، بريتاني، كورسي، باسكي... ولا هويتك الاجتماعية أيضاً: تمارس هذه المهنة، أو لديك تلك السمعة. لا، اسأل نفسك عن هويتك العميقة: من تكون أنت بعيداً عن كل هذه الهويات؟ من أنت بصفتك كائناً متفرداً؟ ما هي طبيعتك الحقيقية؟ إلى ماذا تتطلع؟ ستجد أنه يمكن أن يوجد تباعد بين الصورة التي يملكها الآخرون عنك، أو التي تطمح أن تعطيها للآخرين، وبين كينونتك الحقيقية. وستجد أنك لست متماهياً مع ذاتك كلياً. وستجد أن المهنة التي تمارسها هي التي تمنّاها أهلك لك، أو التي اخترتها بالخطأ، لتضمن راحة مادية. وستجد أنك لست ذاتك في حياتك العاطفية والاجتماعية، وذلك من أجل أن تعجب الآخرين وتكون محبوباً ومعروفاً. أو بالأحرى لا تعرف حقيقة من تكون، وبأنك لست راضياً عن حياتك،

لكنك لا تعرف ما العمل، ولا إلى أين تذهب، لتحقق ذاتك كلياً. إن هذا السؤال أساسي، لأن أي طريق للحكمة لا يمكن له أن يكون دائماً على أساس «ذات مزيفة»، وجهل بالنفس، وبطبيعتها العميقة وبتطلعاتها الحقيقية.

- جيد، لكن كيف نتعلم معرفة أنفسنا؟

- عن طريق عمل الاستبطان، وهذا يعني ملاحظة دقيقة لأحاسيسك، ولأفكارك، ولكلامك، ولأفعالك، ولردّات فعلك الشعورية، وما ترغب فيه وما تنفر منه. إن باروخ سبينوزا، لا يعدّ أحد أهم الفلاسفة في كل العصور فقط، بل رائد علم نفس الأعماق. في كتابه «الأخلاق»، يشرح بأن كل عضو حي يجاهد ليثبت كينونته، وليتطور. وقد لاحظ أنه في كل مرة نزيد قدرتنا على الفعل، ونحقق أنفسنا وفق طبيعتنا المتفرّدة، نعيش حالة فرح. وعلى النقيض من ذلك، في كل مرة تتضاءل قدرتنا على الفعل، أو لا نتصرف حسب كينونيتنا العميقة، فعندها نعيش حالة حزن. إن الفرح والحزن شعوران أساسيان يسمحان لنا بمعرفة فيما إذا كنا نحن أنفسنا أو لا، وإذا كنا نكبر أو نصغر، وإذا كنا على طريق تحقيق طبيعتنا المتفردة أو على طريق خاطئ، يبعدنا عن ذواتنا وعن سعادتنا الحقيقية.

- إذا فهمت جيداً، أليس الفرح والحزن مثل بوصلتين، تشيران إليّ فيما إذا كنت أنا نفسي وإذا ما كانت حياتي موجّهة بشكل جيد للوصول إلى سعادة عميقة ودائمة؟

- نعم. لكن يوجد هناك توضيحان مهمّان يجب أخذهما بالحسبان. انطلاقاً من ملاحظة أن كل شعور مرتبط بفكرة، وطريقة تفكير، فإن سبينوزا يوضّح بأننا نستطيع أن نملك مشاعر مزيفة، يسميها «أفراحاً سلبية». إنها أفراح مرتبطة بأفكار «غير ملائمة» مغلوطة. يقول لنا: إنها تنتهي دوما بالتحول إلى حزن. المثال الأكثر شيوعاً هو مثال الشغف العاطفي. فيتتابنا فرح شديد لالتقائنا بشخص نتقاسم معه علاقة هوى جامحة. ثم، مع مرور الوقت، ندرك بأننا نتوهم، إذ نكتشف بأن الآخر ليس ذاك الكائن، الذي يدّعيه، أو ما كنا نحلم به، عندئذ يتحول الهوى السعيد إلى هوى حزين، وأحيانا يتحوّل الحب إلى حقد. على النقيض، فإن الفرح «الإيجابي» هو فرح مرتبط بفكرة «ملائمة». بما أنه مؤسس على الحقيقة وبما أن موضوع حبنا أو رغبتنا يتوافق بشكل حقيقي مع طبيعتنا المتفردة، فالفرح الذي ينتج عن ذلك عميق ودائم. إذاً، علينا تعلّم تمييز الأفراح السلبية من الأفراح الإيجابية، وهذا يتطلب حساً عالياً في ملاحظة الذات ووضوحاً حقيقياً، لأن ذلك يتعلق بتطوير أفكار ملائمة.

يتطلب الحزن قدرة على التمييز أيضاً. يحصل أن نعاني أحزانا حقيقية، ولا يمكن تجنبها: فهي أحزان مرتبطة بفقدان قريب، على سبيل المثال. إن الحزن الذي تطرق إليه سبينوزا يؤدي إلى توجيه سيّئ لرغباتنا وإلى أفكار مغلوطة. أنا حزين لأنني أحب شخصاً مؤذياً بالنسبة إلي، أو بالأحرى لأنني أمارس مهنة لا أنسجم معها، أو لأنني مؤمن بمعتقد أو بفكرة خاطئة. على العقل أن يساعدنا، من خلال التجربة والاستبطان، على

تصحيح أفكارنا الخاطئة وعلى إعادة توجيه رغباتنا نحو أشياء أو أشخاص يكسبوننا قيماً عليا، ومن ثمّ يجعلوننا نعيش حالة فرح؛ لأنهم يتوافقون مع طبيعتنا الحقيقية. بالنسبة إلى سبينوزا، كل شيء في الحياة هو مسألة لقاءات جيدة أو سيئة: إن اللقاءات السيئة، هي تلك الأمور التي تتوافق بشكل رديء مع كينونتنا الحقيقية، وتجعلنا نغرق عاجلاً أم آجلاً في الحزن، في حين أن اللقاءات الجيدة، هي التي تتوافق مع كينونتنا المتفردة، وتجعلنا سعداء. هذه اللقاءات يمكن أن تحصل عبر أفكار، ومعتقدات، وأشخاص، وأطعمة، إلخ. حين نتعلم معرفة أنفسنا، نتعلم اكتشاف ما هو جيد بالنسبة إلينا وما هو نقيض ذلك، ما هو منسجم معنا وما هو غير منسجم، ما هو مناسب لصحتنا الجسدية والروحية، وما يسمّمها.

وعلى هذا الأساس عندما تصبح ذاتك، فهذا يساعدك على الانسجام أفضل مع العالم. وهذا ما يشبه إلى حد ما الآلة الموسيقية: إذا تم دوزانها جيداً، تصدر صوتاً جيداً، عندئذ تستطيع أن تأخذ مكانها في الأوركسترا وتتوافق مع باقي الآلات الموسيقية. وكذلك يأتي الفرح أيضاً عندما نكون نحن أنفسنا بشكل حقيقي، وحين نكون في المكان الصحيح في الكون، وفي الحياة، وفي المجتمع. إن الكلمة اليونانية eudaimon التي تعني (سعيد) تُقال ببساطة eu (في توافق) daimon (عبقري، إلهي)، يعني أن نكون في توافق مع عبقريتنا الطيبة أو مع القسم الإلهي الموجود فينا. أقول: لنتحرّك مع طبيعتنا العميقة ومع الكون. إن الحكيم هو المنسجم تماماً مع ذاته ومع العالم. يعزف مقطوعته الموسيقية: فموسيقاه جيدة، تلامس القلب بسبب هذا الانسجام الكامل.

- إن ما قاله سبينوزا يجعلني أفكر بالحكمة الشهيرة لنيتشه: «كن ما أنت عليه!»، لكن أيضاً يجعلني أفكر بالتحليل النفسي، الذي يدعونا، عبر بذل جهد لمعرفة الذات والوعي، إلى هدم هوياتنا المزيفة لنصبح نحن ذواتنا.

- استعار نيتشه العبارة من الشاعر القديم بندار، الذي كان أيضاً قارئاً مثابراً لكتب سبينوزا. كان لديه إدراك عظيم لفلسفته، خاصة بعد أن قرأ كتابه «الأخلاق». بالنسبة إلى فرويد، فإنه يعترف بسبينوزا بصفته رائداً حقيقياً في التحليل النفسي، حتى إن فرويد لم يسبق له أن استخدم كلمة «اللاوعي». ورغم أنه لم يستخدمها، فقد وصف بشكل متقن معظم طرق عملها وأكد أننا، بدون أن نكون واعين، نستثار عبر عواطفنا، يعني عبر رغباتنا، وعبر مشاعرنا، وعبر أحاسيسنا. سأعود إلى موضوع الحرية لاحقاً. من أجل أن أبقى عند موضوع معرفة الذات، عليّ أن أستحضر أيضاً «الصيرورة الفردية»، التي أسسها كارل غوستاف يونغ.

لمّا استلهم من القصص الأسطورية وأعظم الأبحاث الخرافية، كالسعي وراء الكأس، أظهر يونغ أن وجودنا يمكن أن يشبه طريقاً أولياً (بدئياً). إذ إن بحثنا يشمل تحقيق ذواتنا، يعني أن نصبح أشخاصاً متفردين، بعيدين عن كل التأثيرات النفسية والاجتماعية. إن الطريق نحو تحقيق الذات مكوّن من كل التجارب التي عرضتها علينا الحياة. إنها هذه المحاولات التي تسمى الصيرورة الفردية. إن هذا الطريق يحتوي بالتأكيد كثيراً من العوائق. لكن علينا أن نتجاوزها، كما فعل الأبطال الأسطوريون أو فرسان الأسطورة

الآرثرية، فالهدف هو تخطي عتمتنا، أي هذا الجزء اللاواعي والمظلم من ذواتنا، الذي لا نريد رؤيته. إن إعادتنا لنور الوعي محتوياتٍ مدفونة في لا وعينا، تكشف عن مغامرة خطرة، تتطلب في معظم الأحيان مساعدة خارجية: وهي المحلل النفسي. لكن في إطار الحكمة التقليدية، يمكن لهذه المساعدة أن تأتي من المرشد الروحي، وهو شخصية مفتاحية في التيارات العظمى الروحية، ويمكن أن يكون هندوسياً، أو بوذياً، أو مسيحياً أو صوفياً. إن المحلل، أو السيد الروحي، هو مرشد اجتاز في الماضي هذا الطريق من العتمة إلى الضياء، إذاً هو قادر على توجيهنا وعلى دعمنا وعلى جعلنا مرتاحين. ومن البديهي جداً أن نمتلك قدرة كبيرة على التمييز لاختيار ذاك الذي نرغب في الاعتماد عليه لإنجاز هذا الطريق الفطري لتحقيق الذات.

- ما هي المعايير التي تميز المعالج الجيد من السيد الروحي الحقيقي؟

- في الحالتين، تبدو لي ثلاثة معايير ضرورية: الخبرة، واللطف والعطاء. وعلى المرشد، سواء أكان طبيباً نفسياً أم روحياً، أن يجرب ما يعلّم. وهذا ما يسمح له بمرافقة الآخر في رحلته البدائية الخاصة. ثم يجب عليه أن يكون خيّراً، أي أنه يريد الخير لذاك الذي يرافقه. وذلك يتجسد برغبة جعل المريض أو المريد، يعيش حالة كبيرة من الاستقلالية الممكنة. إنه نقيض المعلم الطائفي أو المعالج المحافظ، الذي يبحث بوعي أو بلا وعي عن جعل الآخر مرتبطاً به. يقود العطاء أيضاً إلى وضع غير أناني: فلا يشكل المال أهمية أساسية في الإرشاد. في إطار العلاج، فإن التبادل المالي عادي،

لكن يجب أن يبقى معقولاً. إن المعالجين الذين يطلبون مبالغ طائلة جداً أثناء العلاج يجب تجنبهم. وضمن إطار الرفقة في التقاليد الروحية، لا يوجد عموماً أي وجود للمادة ضمن المساعدة، التي يقدمها المعالج.

لكن صحيح أن دعم المرشد، يبدو مفيداً جداً، وذلك عندما نتطلع إلى اجتياز مناطق شديدة الظلمة في أعماقنا، لكننا نستطيع ممارسة العمل وحدنا، تبعا لسقراط، أو مونتين أو سبينوزا، ما يهم في الطريق هو أن نعرف أنفسنا وأن نجد ما يناسبنا، وما هو جيد بالنسبة إلينا، وما يجعلنا في حالة فرح فعّال. يتعلق الأمر بأن نحاول جعل حياتنا عملاً فنياً.

التفوق الإنساني: الحب والفضيلة

- قلتَ في بداية حوارنا: إن الحكمة تريد أن تقودنا نحو حياة جيدة وسعيدة. وتحدثت كثيراً عن السعادة، لكنك أيضاً تحدثت قليلاً جداً عن الحياة الجيدة. فما هو الفرق بينهما؟

- أسس سقراط هذا التمييز الجوهري بين الحياة السعيدة والحياة الجيدة، أي حياة تسير وفق ما هو جيد. نستطيع أن نفتش فيها عن سعادة أنانية، دون الاهتمام كثيرا بالآخرين، أو عندما يمارس الظلم. نعرف كلنا أناساً يعيشون على فكرة «أنا، ومن بعدي الطوفان» لا يفكرون إلا بأنفسهم، أو بعشيرتهم، ولا يملكون أي اعتبار للخير المشترك. من جانب آخر، لا أعتقد بأنهم يستطيعون أن يكونوا سعداء بعمق؛ لأن السعادة العميقة مرتبطة بالحب، وبالإيثار، وبالعلاقة السوية مع الآخرين. مهما يكن، فإنهم يتطلعون إلى السعادة دون التطلع إلى العيش وفق طريق الخير. يمكن لحياتهم أن تكون أكثر أو أقل سعادة، لكن دون أن تكون جيدة (خيرة). إن الحكمة تأخذنا نحو حياة سعيدة وطيبة في آن واحد.

إنها حياة سعيدة؛ لأن الحكمة تدعونا لنحقق ذواتنا حسب طبيعتنا المتفردة، وإنها حياة طيبة؛ لأن الحكمة تعلمنا أن نهتم بالآخرين، وأن نحترمهم، وأن نسلك طريق الخير.

- هل يعني سلوك طريق الخير حب الآخرين؟

- نعم ولا! إن الحب هو قمة الحكمة؛ لأننا حين نحبّ / وحين تقودنا مشاعر الحب، نرغب في الخير ونقوم به دون أي شيء آخر، ودون أي قانون، يجبرنا على ذلك. لكننا نستطيع أيضاً احترام الآخرين وممارسة الخير بدافع همّ أخلاقي. نستطيع إذاً أن نتحرك جيداً عبر الحب أو عبر الفضيلة. يمكن لهذا الحب أن يكون متنوعاً جداً: يمكن أن يكون حب رغبة جنسية (eros باليونانية)، وحب صداقة (philia) أو حباً كونياً غير أناني كلياً. إن حب الرغبة (الجنسية) غامض جداً، لأنه يستطيع أن يقودنا، في حالة تطرفه، لإعطاء حياتنا للآخر أو لقتله... عبر هوى عشقي! إن حب الصداقة (الذي يشمل الأصدقاء أكثر من العلاقة التي تربط بين الزوجين أو حب الأهل لأطفالهم) هو أكثر عمقاً وروحية: إننا خيرون إزاء أولئك الذين اخترناهم أو رغبنا فيهم: أي شركائنا، وأطفالنا، وأصدقائنا. نريد الخير لهم لأننا نحبهم. وفي النهاية، الحب الكوني (والذي يترجم بـ "agapé" أفضل من كلمة «رأفة» التي تحمل معاني عدة) وهو الأكثر روحانية وبعيد عن الأنانية: إننا لا نحب أقاربنا فقط، هؤلاء الذين اخترناهم، لكن كل كائن إنساني وكل كائن حساس أيضاً. إنه الحب الذي مدحه بوذا والمسيح: إنه حب لا يتطلب أي تبادل (أو مقابل). إن هذا الحب خلّاق: إننا لا نحب أشخاصاً مرغوبين أو محبوبين لأنفسهم، لكننا نجعل الأشخاص محبوبين ومرغوبين؛ لأننا نحبهم. عندما نحب، نعطي قيمة لذاك الذي نحب. إنه التعريف نفسه للحب الإلهي الذي تم

وصفه في الكتاب المقدس: إن الله لا يحب البشر لأنهم محبوبون أو جديرون بأن يكونوا محبوبين، لكنه يحبهم بطريقة مجانية. لأن الله يحب كل البشر، حسب ما يقول لنا المسيح، لذلك يضفي عليهم قيمة أبدية لا نهاية لها، وعلينا أن نحبهم بدورنا. فالمسيح يدعونا إذاً، إلى احترام قريبنا وأن نقدم له الخير، ليس بدافع الواجب بل بدافع الحب، آخذين بعين الاعتبار مثال حب الله لنا. وهذا ما جعل سبينوزا يقول إن المسيح «حررنا من عبودية القانون، مع ذلك، فقد أكده وحفره إلى الأبد في أعماق القلوب» إن بوذية مهايانا «العربة الكبرى»[1] اتبعت التطور عينه، مروراً من قانون العطاء (maitri بالسنسكريتية) إلى الرأفة الفعّالة تجاه كل الكائنات الحية (Karuna). إننا لا نحترم أقاربنا لأننا نخضع لقانون ما، بل لأننا نحبهم. إن هذا الحب الكوني غير الأناني، هو تتويج للحكمة. وإذا امتد هذا الحب إلى كل الكائنات التي زُودت بالوعي والحساسية، وليس للبشر فقط، فأنا مقتنع أن ذلك هو العدل. بالنسبة إلي، فالحكيم الحقيقي يحب وكل الكائنات الحية ويحترمها، قدر ما يستطيع.

- من الصعب جداً الوصول إلى هذا الحب الكوني، لا سيما حين لا نكون مؤمنين بإله الحب، كالمسيح، أو بممارسة روحية مركّزة، كما في الديانة البوذية!

- تماماً! فإننا لهذا السبب نحتاج لفضائل وقيم أخلاقية. إن فلاسفة العصر القديم عرّفوا عدداً من القيم والصفات الأخلاقية التي تظهر التفوق الإنساني، وسمّوها «الفضائل» حيث إن جذر الكلمة يعني

«التفوق». إننا نتحدث بسهولة عن ميزة نبتة أو علاج ما، لنشير إلى قوة عملها الخاصة. إن ميزة زهرة العطاس أو الأسبيرين هو تخفيف الألم. فلنطبق ذلك على الإنسان: كيف يعبر عن قدرته على الفعل؟ ما هي فضائله الخاصة التي تجعله إنساناً كاملاً؟ وما الميزات التي تجعلنا نتفوق، لا بصفة طبيب أو محام أو موظف بنكي، بل بصفتنا بشراً؟ ها هي ذي واحدة من أعظم أسئلة الحكمة. من خلال هذا التساؤل، عرّف القدماء عددا من الصفات الأخلاقية، أي صفات مرتبطة بالفعل وبالحياة في المجتمع، تسمح لنا أن نكون بشراً مملوئين بالإنسانية. إن مونتين وسبينوزا انتسبا إلى هذا المنطق الذي، من وجهة نظري، لم يخسر شيئاً من كفاءته. كتب مونتين أيضاً: «لا يوجد شيء أكثر جمالاً وعدلاً من صناعة إنسان جيد وكما ينبغي».

- ما القيم الأخلاقية التي تسمح لنا بأن نكون إنسانيين كلياً؟

- الأساسيات الأربعة هي ما سميت في التقاليد الغربية «الفضائل الكاردينالية» أو الرئيسة[٢] وهي: العدالة، والحكمة، والاعتدال، والشجاعة. إن العدالة هي دون شك الفضيلة الأكثر أهمية ويقول أرسطو إنها «الفضيلة الكاملة» لأنها تعد أفقاً لكل الفضائل. نستطيع أن نكون حذرين، بشكل معتدل أو بشجاعة وبطريقة أنانية. يمكن لمستبد أن يقدم دليلاً على امتلاكه شجاعة كبيرة، دون أن يربط هذه الشجاعة بقيمة إنسانية. إن قيمة العدل بحد ذاتها، قيمة كونية، إذ لا يوجد حياة ممكنة في المجتمع دون عدل، وهي قيمة أخلاقية شخصية في آن واحد. إن الأطفال، والصغار كذلك،

يفهمون جيداً ما هي العدالة عبر معنييها العظيمين: الشرعية (ما هو مطابق للقانون) والإنصاف (الذي يضمن مساواة الجميع أمام القانون). إذا لم يحترم طفل ما قواعد لعبة ما، يصبح الأطفال الآخرون مباشرة ضامنين للقانون: «عليك احترام قواعد اللعبة، وإلا فلا نريد أن نلعب!» وعندما يشعر طفل بأنه منزعج إذا حصل على شيء أقل من الآخرين، على سبيل المثال، يتمرد حالاً، ويقول: «هذا ليس عدلاً». كما عرّف أرسطو ذلك جيداً: «فإن العدل هو ما يتوافق مع القانون وما يحترم المساواة، وأما ما هو غير عدل فهو ما يتناقض مع القانون، ويفتقد للمساواة».

- ألا يوجد صراع بين هذين البعدين للعدل، لأن القانون يمكن له أحياناً أن يكون غير منصف؟

- إطلاقاً! فقد قبل سقراط الموت، في حين أنه كان يستطيع الهرب، لأنه لم يكن يريد الفرار من قرار الحكم الذي يبدو عادلاً في مدينته... رغم كونه غير عادل بالنسبة إليه! لست متأكداً أنه كان على حق؛ لأن قانون المدينة أو قرارات المحكمة، التي تطبق عبر قوة السلطة، ليست عادلة دوماً. تحت حكم فيشي، كان المقاومون على حق، وليس المتعاونين الذين احترموا القانون. وإذا كنتُ ضحية قرار محكمة غير عادل كلياً، فلا أعتقد بأنني سأنفذه بخضوع! إن العدل الأخلاقي بصفته إنصافاً يبدو لي أكثر أهمية من العدل السياسي، وهو ضروري جداً للحياة المشتركة. كانت العبودية شرعية خلال آلاف السنين، في حين أنها اليوم تمييز غير عادل من الناحية الأخلاقية؛ لأنها قائمة

على التمييز بين البشر. منَ السعادة أن نرى رجالاً ونساء ناضلوا ليطوروا قانوناً غير عادل من الناحية الأخلاقية، كما نجد هذا النضال في مجالات عدة: كالكرامة لكل البشر، وحرية الوعي والتجربة، والمساواة بين الرجل والمرأة... إلخ.

إن الفضيلة الأخلاقية للعدالة تحثنا على عدم استخدام قوتنا؛ لنهيمن على البشر الآخرين ونستغلهم. وتقترح علينا أن نضع أنفسنا مكان الآخرين، وذلك حين نبحث عن فهم مصالحهم قبل أن نتصرف. فهي تقودنا إلى حماية أشخاص أكثر ضعفاً في المجتمع، يتطلعون أيضاً إلى السعادة. وقد ذكرت ذلك سابقاً، حين تحدثت عن الحب الكوني، فأنا أعتقد بأن الوعي الإنساني، قد تطور بما فيه الكفاية، ليمتدّ اليوم المفهوم الأخلاقي للعدل إلى كل الكائنات الحساسة. إذ لا يجب علينا الاستفادة من قوتنا لنستغل ونعذب بفظاعة الحيوانات، كما هي الحالة في التربية الصناعية أو تشريح الحيوانات الحية. علينا أن نحترم حاجاتهم الطبيعية وأن نمنع كل فعل قاسٍ تجاههم. إن فضيلة العدل تتطور عبر الإدراك، لكن أيضاً عن طريق التعاطف والرأفة، أي أنها القدرة على الإحساس بما يشعر به الآخر، وأن نضع أنفسنا مكانه. كما عبّر عن ذلك داروين بشكل جميل عام ١٨٧١عندما قال: «تعدّ الإنسانية إزاء الحيوانات الضعيفة من أنبل الفضائل التي مُنحها الإنسان، وهي تتعلق بالمرحلة الأخيرة من تطوير المشاعر الأخلاقية. وذلك يحدث عندما نهتم بمجمل الكائنات الحساسة فقط، عندها ستصل أخلاقنا إلى أعلى مستوى لها». إن احترام أقاربنا سهل نسبياً ونجد فيه منفعة واضحة. لكن احترام الكائنات الحية البعيدة عنا، التي هي من نوع آخر، هو علامة على القدرة الحقيقية على الاهتمام بالآخرين، ويتمّ هذا بطريقة غير أنانية كلياً.

- وبعد قيمة العدالة، كيف يسمح لنا الاعتدال بأن نكون إنسانيين كلياً؟

- إن الاعتدال هو فضيلة، تنظم دوماً السمة غير المشبعة لرغبتنا. خلافاً للصورة المنتشرة، فالاعتدال لا يعني التقشف والزهد. كان أبيقور قد ناضل في السابق ضد هذا الحقد على المتعة، والذي كان إسبوزيبوس قد طورّه، وهو ابن أخت أفلاطون وقد خلفه في الأكاديمية، وقد أراد إعادة تأهيل هذا الشعور. وكذلك سبينوزا شجب بقوة الزهد قائلاً: «وحده العنف والخرافات الحزينة تمنع امتلاك اللذات بشكل مؤكد». ومع ذلك بالنسبة إلى الحكماء، فاللذة أقوى من كونها محدودة، ومعرّفة، وهدفاً يقاس عليه. إن رغبة الاستمتاع بكل شيء، هو عدم الاستمتاع بأي شيء. وإن الألم الذي يعاني منه المدمن على الكحول، والمدخن الشديد أو متعاطي المخدرات أفظع من اللذة التي يحصل عليها من إدمانه. كما يقول أندريه كومت سبونفيل بقوة، فإن الاعتدال يدعونا إلى «الاستمتاع بأكبر قدر ممكن، وبأفضل ما يمكن، لكن عبر زيادة الإحساس أو الوعي الذي سنحصل عليه، وليس عبر ازدياد عناصره التي لا حصر لها». من الأفضل تغليب النوعية على الكمية، ويجب من خلال فضيلة الاعتدال، تعلم أن نضع حدّاً لرغباتنا. وأن نتعلم إرضاء أنفسنا بأشياء قليلة. وأن نتذوق كل قائمةٍ للمتعة بحيوية. فعبر هذه «السعادة البسيطة» وعبر «قوة الاعتدال هذه» يدعونا حكماء الأمس واليوم، أمثال بيير رابحي.

- وما الشجاعة؟

- الشجاعة، أو قوة الروح، كما قال القدماء، هي في البداية سمة تطبع الشخصية. نستطيع أن نكون شجعاناً دون أن نملك أية أخلاقية وأن نضع شجاعتنا في خدمة رياضة قصوى، وفي حياة خطرة، أو ببساطة في قدرة طبيعية على تجاوز المخاوف. إن الشجاعة ليست فضيلة أخلاقية حقيقية إلا عندما تكون تجاوزاً للذات وحدودها من أجل الحصول على حياة جيدة، وأكثر فضيلة، عندما توضع في خدمة الآخر أيضاً. لنتخيل اعتداء في قطار أنفاق. إذا كنت أنا المعتدي ولست خائفا، فسأواجه ذلك دون صعوبة. لا أخلاق إذاً في هذا الموقف. وإذا شعرت بالخوف، وتجاوزت خوفي، فسأقوم بفعل أخلاقي يسمح لي بأن أتطوّر إنسانياً. وإذا كنت شاهداً على الاعتداء وأنجدت الضحية، فهذا يعني فعلاً أنني شريف وفي أعلى درجة أخلاقية؛ لأنني سأضع شجاعتي في خدمة الآخرين. إن الشجاعة تسمح لنا بتجاوز مخاوفنا وحدودنا لنكبر على مستوى الإنسانية. وهو سبب إعجاب كل الثقافات، إذ ضمنها نجد تأليهاً حقيقياً للـ «بطل».

البطل (يعشق الأمريكيون هذه الكلمة!)، هو ذاك الذي تجاوز مخاوفه وتخلص من حدود عجزه، وعرف كيف يخاطر، ليخدم بشكل خاص قضية تتجاوز منافعه الأنانية. وعلى النقيض فنقيض البطل، أي «الجبان»، هو الشخصية الأكثر احتقاراً في كل الحضارات.

- يبقى الحذر فما هو؟

- في الواقع، إن الحذر هو رابع فضيلة كاردينالية وهو فضيلة تكشف عن الذكاء أكثر من الإرادة. ووفقا لهذا المعنى، فهي ضرورية لكل

الفضائل الأخرى. وقد حملت هذه الكلمة معاني عدة أكثر من معناها الأصلي، فأصبحت تمتلك معنى العقلانية، والحذر، والغياب الكلي للخطر. وبذلك لم تعد تحمل المعنى الموجود في تقاليد الحكمة. إن prudentia هي الترجمة اللاتينية للكلمة اليونانية phronèsis، التي يمكن أن نترجمها بـ «الحكمة العملية» أو «التمييز». يشرح أرسطو بأن الحذر هو قابلية العقل الذي يسمح لنا بالتفكير بدقة حول ما هو جيد وما هو سيئ إزاء موقف ما والتصرف وفقا له في النتيجة. بالنسبة إلى أبيقور، يعد الحذر فضيلة أساسية؛ لأنها تسمح لنا بتمييز اللذات، كما تسمح بتوجيه رغباتنا بطريقة صحيحة. دون تمييز، فلن نجد أية حكمة ممكنة. أيضاً الحذر، على نقيض ما يقترحه القبول الحديث للمصلح، يستطيع أن يحثنا على المخاطرة، من أجل إثبات شجاعتنا، باسم العدل، على سبيل المثال.

- أيدعونا الحذر أيضاً إلى التفكير بنتائج أفعالنا؟

- في الواقع، كثيراً ما يكون ذلك على المستوى الفردي أكثر من المستوى الجماعي. إن هذا الحذر يلهم المبدأ الحديث للاحتياط، ولا سيما في المجال الأساسي لعلم البيئة. إذاً، إنه مفيد جداً في إطار مجتمع تكنولوجي في أعلى مستوى له، لم يتخلَ عن اهتمامات النظام الأخلاقي.

- أليس الحذر هو ما تسميه الحكمة الشعبية بالفطرة السليمة؟

- بطريقة أكثر توسعاً، نستطيع أن نقيم تشابها بين الحذر وغريزة الحيوانات. فللحيوانات غريزة طبيعية، تسمح لها بأن تميز بين

ما هو جيد وما هو سيّئ بالنسبة إليها في كل موقف، وبعد ذلك تتصرف في النهاية. هذه الغريزة الحيوانية توجد فينا أيضاً، بعضهم يدعوها في الواقع «الفطرة السليمة»، لكنها ضعيفة جداً لدينا بسبب المكانة المهيمنة للثقافة في حياتنا، وهذا يجعل تمرين ذكائنا العملي وحكمنا التمييزي شيئاً مهماً.

توجد كثير من الفضائل الأخرى، كالكرم، والتواضع، والرحمة، واللطف، والإخلاص، والتسامح،... إلخ، وهي مهمّة أيضاً لكونها تساعدنا على أن نكتسب قيماً إنسانية. إذا كان ذلك يهمك، فأنا أدعوك إلى قراءة عملين مهمّين ومتكاملين حول هذا الموضوع هما: الأخلاق النيقوماخية لأرسطو، ورسالة صغيرة عن الفضائل العظيمة لأندريه كونت سبونفيل.

- لن أفوت قراءة ذلك! أتساءل فيما إذا كانت السخرية، التي أشعر بحساسية تجاهها، يمكن اعتبارها فضيلة؟

- مطلقاً. أنت تعطيني الفرصة لأضيف كلمة على فضيلتين يمكن أن تكونا موجودتَين في التقاليد وتبدوان لي مع ذلك مفيدتين في نشر الحكمة: السخرية والمرونة. هاتان الصفتان ليستا دون صلة. إن واحدة من الفضائل الأساسية للسخرية، هي السماح لنا بالنظر إلى الأمور، وذلك بأن نقوم بالبرهان على المرونة، وذلك بأن نأخذ مسافة ذهنية فيما يتعلق بمأساة الوجود. كما يقول وودي ألن: «الحياة ليست إلا سلسة من المشاكل. لكن الأسوأ، توقفها!» إن السخرية هي صفة ذهنية، تسمح لنا بمواجهة حدث ما صعب، أو بالأحرى

مأساوي، وجعله أخف، وذلك من خلال تحويله إلى سخرية، وربما نستخلص منه الفرح. إن السخرية الأكثر روحانية وعمقاً هي ما نملكه إزاء ذواتنا، ونموذج ذلك السخرية اليهودية.

- لماذا طوّر اليهود معنى خاصاً جداً للسخرية الذاتية؟

- أرى لذلك سبباً لاهوتياً وسبباً تاريخياً. يرجع السبب اللاهوتي إلى التباين العميق جداً بين الاختيار الإلهي للشعب اليهودي وتصرفات أفراده، كخلاصة للبشرية جمعاء. وفقا للكتاب المقدس، في الواقع، الله هو خالق الكون ومصدر كل القداسة، وقد انتخب هذا الشعب الصغير، الذي لا يملك شيئاً أكثر قداسة أو فضيلة من الآخرين، وعبء الاختيار هذا، كان صعب التحمل لدرجة أن الأفضل الاستهزاءُ منه. أما السبب التاريخي، فهو أن الشعب اليهودي عانى كل أنواع الاضطهاد منذ ألفي عام. كما ذكرت للتو، إن السخرية تسمح بتحمل الألم، إنها تسمح تقريباً بإعطائه معنى. يبدو لي أن السخرية المدهشة اليهودية، هي قمة السخرية الذاتية، التي تطورت من خلال اجتماع هاتين الإشكاليتين: الاختيار (شعب الله المختار) والاضطهاد، هذه الثانية تجعل الأولى أكثر إشكالية، وتقوم بتقوية النأي بالنفس الضروري الذي تنتجه السخرية.

إن للسخرية فضيلتين اثنتين: الأولى تخلق مشاركة؛ أي رابطاً اجتماعياً (إنها فضيلة الضحكة المشتركة) وتخفف ما هو جدي جداً، فتشجع التواضع. إن حكمة الحكيم التي ينقصها السخرية تصبح مزعجة ومفروضة ونؤكد، بشدة، أن القديس دون سخرية هو قديس حزين. إذاً تبدو السخرية بالنسبة

إلي أساسية للحكمة! هذا من جهة؛ لأنها تسمح بملء هذه الهوة المأساوية والمضحكة معاً، بين المثالية التي نطمح إليها والواقع الذي نعيش فيه. من الأفضل أن نضحك من محدوديتنا، ومن هشاشتنا ومن عيوبنا، بدلاً من الشكوى والنواح عليها. ومن جهة أخرى، لأنها تجعلنا أكثر خفة وتواضعاً في طريق روحي جاهز فلا نكون جديين، ومتفاخرين، ومغرورين. في كل مرة يعرض علي مدع بأنه «سيد روحي»، فالشيء الأول الذي أختبره، هو مدى إحساسه بالسخرية. لأن الإنسان بدون هذه السخرية يحتاج إلى اجتياز كثير من الطرق، ليصبح إنساناً مكتملاً.

- استحضرت أيضاً المرونة بصفتها فضيلة أساسية. أعتقد بأنك كنت تنوي الحديث عن مرونة الفكر، ولا عن مرونة الجسد!

- إن مرونة الجسد ضرورية للتحرك، لكن مرونة العقل مفيدة للعيش الجيد. إن المرونة، تعني القدرة على التأقلم مع كل موقف، وتبدو لي فضيلة ضرورية للحكمة. إنها غائبة عن التقاليد الغربية، لكنها تكمن في صلب أعظم تيار صيني للحكمة أحبه كثيراً: إنها الطاوية. ولدت الفلسفة الطاوية في الصين حوالي القرن الرابع قبل الميلاد، تطورت في مواجهة الفكر الرسمي الكنفوشي (والذي استلهمت جزءاً منه) بصفته فكراً غير عقائدي (جامداً) ومرتاباً، ونقدياً. إنها تمدح قيماً تبدو متناقضة، كقوة الضعيف، وحكمة الطفل وفعالية الاستسلام (الرضا). لكن، الفضيلة الأساسية التي يتحدث عنها أحد أهم المؤسسين وهو شوانغ تسو (الذي كان يمتلك كثيراً من السخرية)، هي المرونة. إن الحكيم (أو المتطلع إلى الحكمة)

مرن، ومساير، وقابل للتكيف. ليس متحجّراً في أفكاره ولا في تصرفاته. يتعود أيضاً على أن يرافق بشكل داخلي الحركة المستمرة للحياة، بدلاً من مقاومتها بفكر عقائدي أو تصرف رجعي. خلافاً للفكر الكنفوشي (أو الرواقي)، الحكمة لا تشمل تقليد نظام كوني كامل، بل بالأحرى تشمل الارتباط السعيد بالتدفق الوفير، والفوضوي، والمتحرك الذي لا يمكن التنبؤ به في الحياة على الأرض. إن الحكمة الطاوية ليست إذاً حكمةَ نظام، بل حكمة فوضى؛ وليست حكمة استقرار بل حكمة حركة. تمدح العفوية، والمرونة، والانسياب، للبقاء في انسجام، ليس مع النظام الكوني غير القابل للتغير، لكن مع دفق للحياة نفسها. هنا نجد مفتاح السعادة الحقيقية، وكل الفرح. إننا نجد في هذه الحكمة الفكرة الأساسية للقبول، وللاستسلام، ولقولنا: «نعم» للحياة، وقد ذكرنا ذلك سابقاً. لكن هنا، نطرح الفكرة من خلال منظور غير عقائدي، وسعيد، إذ إنه يقترض من العفوية والخفة. مثل تلك الطريقة، التي ينظر إليها الأطفال الصغار للحياة.

- كل الفضائل التي استحضرتها، ولا سيما الفضائل الكاردينالية، هل هي طبيعية؟ كيف أكتسبها وأطورها؟ يحدث في الواقع، أن أعرف ما هو جيد بالنسبة إلي، وما يجب عليّ فعله، لكنني في معظم الأحيان ضعيف جدا ومضطرب؛ فلا أقوى على بلوغه.

- تسمح الفضائل للمرء بأن ينشر كل إمكاناته الأخلاقية، تلك التي تتوافق مع طبيعته بصفته إنساناً. معظم الأخلاقيين يرون أنها تتبدى

عبر التعليم وحده. فالطفل المتوحش الذي ربّته الذئاب يحاول اكتساب فضائلها. والطفل المتربي في مجتمع إنساني، يحاول اكتساب فضائل إنسانية ويطورها. وهذا أمر غير قابل للجدل، لكن ذلك لا يستمر طويلاً، حتى نلاحظ أن ثمة استعدادات طبيعية، تختلف حسب الأفراد، ليكونوا مستقيمين، وسطيين، وشجعانا وحذرين. والشيء نفسه صحيح مع معنى السخرية، والكرم، والرحمة، إلخ. كل شخص يحمل بذوراً وتجارب مختلفة: بعض الأطفال لديهم ميل كبير نحو الكرم، والتواضع والعدالة مقارنة بغيرهم. لكن التعليم يؤدي دوراً حاسماً في تطورهم. إذ يستطيع أن يصحح ميولاً طبيعية، يمكنها أن تقود إلى إدمان أو رذيلة. إذاً الفضائل هي من وجهة نظري، على مفترق طرق بين الطبيعة والثقافة، وإن كانت الثقافة، تؤدي دوراً حاسماً في نموهم.

حسب أرسطو، تكتسب الفضائل وتدعى لتأسيس طريقة لكينونة دائمة. هذا لا يعني أننا نستطيع أن نصبح فضلاء للأبد! إذا تم نقل الفضيلة عبر التعليم، فإنها تقوى وتتجذّر فينا بواسطة التمرين. إذاً باستخدامنا الحديد نصبح حدادين، وبالتمرّن على العزف على البيانو نصبح عازفي بيانو، وعبر الممارسة الدائمة لأفعال شجاعة أو أفعال معتدلة نصبح شجعاناً أو معتدلين. تقول لنا التقاليد، إن الفضيلة «عادة» وهي ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية hexis، وهي صفة ثابتة، نكتسبها ونتعلمها بقوة عبر طرح أفعال فضيلة. والعكس صحيح أيضاً: إننا نصبح من أصحاب الرذيلة عند ممارسة أفعال سلبية. ونصبح مدمني كحول بسبب إتباع إغراء بسيط لشرب كأس

إضافي. في مكان آخر، يعرّف أرسطو الفضيلة بصفتها وسطاً (arété باليونانية) بين حدين متطرفين يشكلان الرذيلة. أيضاً، الاعتدال، هو وسط بين الفسق (رذيلة الوقوع في الكثير من اللذات) والزهد (رذيلة نقص هذه اللذات). الشجاعة تشكل وسطاً بين الجبن (الابتعاد عن المخاطرة) والتهور (مخاطرة بشكل أرعن)، إلخ.

- ذلك يجعلني أفكر بالمقولة المشهورة «طريق الوسط» التي مدحها بوذا. هل هذه هي الفكرة نفسها؟

- في الواقع، بدأ بوذا بتجربة طرق متطرفة. بعد ترف حياته الملكية، وقع في النقيض المتطرف، وهو: الزهد والتخلي عن كل شيء. فقد جلس عند أسفل الشجرة وتأمل خلال أيام وليال، متوقعاً أنه لن يصل إلى التطور. وهكذا بلغ اليقظة، والاستنارة، التي سمحت له بشكل خاص بالوصول إلى الفهم بطريقة حدسية بأن الحكمة الحقيقية تتشكل من طريق وسطي تماماً بين الارتباط باللذات والتخلي عنها. قال في خطبته الأولى التي ألقاها في فاناراسي إنه عندما تجنب هذين الحدين المتطرفين، استطاع اكتشاف طريق الوسط الذي يعطي البصيرة، والمعرفة، والذي يقود إلى السلام، والحكمة، واليقظة وإلى النيرفانا[٣] إنها الفكرة نفسها المطورة من قِبل أرسطو بإقامة توازن بين حدين متطرفين، لكنها تمارس في الحياة كلها. إن الحكمة التي تساعدنا على التوجه نحو وجود متوازن، دون إفراط. وعلى تذوق اللذات الحسية دون أن نرتبط بها. بالنهاية، كل شيء يتسابق يومياً عبر قرارات صغيرة تنتهي بأن تصبح عادات،

جيدة أو سيئة، فاضلة (تربّيني على المستوى الإنساني) أو رذيلة (تصغّرني على المستوى الإنساني).

- لكن كيف أغير عادة سيئة؟ كيف يمكن التحرر من إدمان أو رذيلة تجعلنا تعساء وتسبب الأذى لكل من يحيط بنا؟ هل يتم ذلك عبر الوعي؟ أم عبر قوة الإرادة؟

- يرى الأبيقوريون أنه يكفي لإعادة توجيه رغباتنا وتصحيح عاداتنا السيئة استخدام الحكمة العملية، والقدرة على التمييز. بالنسبة إلى الرواقيين، هم مقتنعون بأن كل شيء يتعلق بالإرادة: «إذا أردت، فإنك تستطيع!» التجربة تظهر أن هذين الفعلين ضروريان... لكن في الغالب غير كافيين! فشارب الكحول يستطيع أن يعي كلياً أن تعلقه يجعله تعسا وعليه أن يخرج من ذلك. إنه يستطيع امتلاك رغبة التوقف. لكن، رغم كل جهوده، يفشل. والحال نفسها مع معظم مواقف الإدمان أو العادات السيئة، التي تعلمناها: نلاحظ أن الوعي والإرادة غير كافيين لإنقاذنا من كل ذلك. إن سبينوزا دون شك هو الحكيم الأول الذي أكد أن الإنسان بحاجة إلى قوة أخرى، ليقوم بالتغيير، غير العقل والإرادة: إنها الرغبة. يقول لنا: إن الرغبة هي «جوهر الإنسان». الإنسان هو كائن الرغبة (وليس كائن حاجات)، وقوة رغبته هي تلك التي تسمح بتحريك كل كينونته لإحداث تغير حاسم في تصرفاته. إن دور العقل أساسي، لأنه يسمح بإضاءة أفعالنا، وبتوجيهها، وبإعادة توجيهها. لكن دون القدرة الحيوية للرغبة، تظل قرارات التغير لدينا، في معظم الأحيان، أمنيات زاهدة.

عندما نكون أسيري رغبة أو تصرف ما يجعلنا تعساء، أو نسبب ألماً للآخرين، فإن دور الذكاء يشمل إثارة رغبات جديدة، تسمح لنا بأن نكتسب قيماً عليا وبأن نكون في حالة فرح. إن العقل يسمح لنا بأن نحكم بشكل أفضل على أشياء جديدة (أو أشخاص) تتوجه رغباتنا نحوهم، حتى نترك تصرفات غير ملائمة تسبب لنا الحزن. إذاً تكمن الرغبة في صلب تصرفاتنا، ويجب علينا تعلم إعادة توجيهها، وذلك بتطوير دوافع جديدة مرتبطة بأفكار ملائمة: مثل اكتشاف ما هو جيد حقاً بالنسبة إلينا، وما يناسب طبيعتنا، وما يجذبنا، وكل ما يجعلنا نكتسب قيماً، ويضعنا في حالة فرح حقيقي.

إن الحكمة السبينوزية التي أرتبط بها كلياً، وهي تتناقض مع أخلاق الواجب القائمة على الرغبة: «عليك» و«يجب»، هي أخلاق يضيئها العقل، لكنها مؤسسة على قدرتنا الحيوية، وعلى رغبتنا، وعلى طموحنا للوصول إلى الفرح.

هوامش

١- بوذية مهايانا: أحد المذهبين الرئيسيين للبوذية ينتشر غالباً في دول شرق آسيا مثل الصين، وكوريا، واليابان، ومنغوليا، وفيتنام، وأقطار الهملايا مثل التبت، والنيبال، وبوتان. يهدف إلى خلاص جميع الكائنات الحاسة. يتميز بالتعقيد وبالتوحيد وتأكيد روح الجماعة. سمي بالعربة الكبرى؛ لأنه يساعد عدداً أكبر من الكائنات الحية للوصول إلى اليقظة.

٢- الفضائل الكردينالية: فضائل يرد ذكرها منذ العهد القديم في سفر الحكمة، وهذه الفضائل يكتسبها الإنسان، إذ إنها ثمار الأفعال الصالحة أخلاقياً وبذارها، وهي تهيئ جميع قوى الكائن البشري للمشاركة في الحب الإلهي.

٣- النيرفانا: مفهوم النيرفانا في البوذية الجاينية هي حالة الخلو من المعاناة. تعتبر الـ (نيرفانا) حالة الانطفاء الكامل التي يصل إليها الإنسان بعد فترة طويلة من التأمل العميق، فلا يشعر بالمؤثرات الخارجية المحيطة به على الإطلاق، أي إنه يصبح منفصلاً تماماً بذهنه وجسده عن العالم الخارجي، والهدف من ذلك هو شحن طاقات الروح من أجل تحقيق النشوة والسعادة القصوى والقناعة وقتل الشهوات، ليبتعد الإنسان بهذه الحالة عن كل المشاعر السلبية من الاكتئاب والحزن والقلق وغيرها.

تمارين روحية

- قلتَ في بداية هذا الحوار إن المدارس الفلسفية القديمة كانت تطرح تمارين روحية لتساعد الإنسان على الوصول إلى الحكمة. إن تيارات الحكمة الشرقية، كالبوذية، تطرح عدة ممارسات وتقنيات أيضاً. تُرى ما التمارين التي يستطيع إنسان عصرنا اليوم أن يقوم بها؛ كي تساعده على أن يكبر على صعيد الحكمة؟

- إن أهم التمارين التي تعدّ شرطاً لكل التمارين الأخرى، هي المحافظة على النية والانتباه. أي المحافظة على النية أن تأخذ بعين الاعتبار كل يوم بأنك ترغب في أن تكبر على الصعيد الإنساني، وأن تتحسن، وأن تصبح أوعى، ومحبوباً أكثر، وأكثر مسؤولية، وأكثر فضلاً وخلقاً، وأن تجدد هذه النية. إن المحافظة على الانتباه، يعني أن يكون ذلك الانتباه حاضراً في الفكر، ولا سيما إزاء كل موقف يتطلب خياراً، أو يمكنه أن يثير ردة فعل عاطفية. وهو أيضاً ما يمكنك فعله إزاء طريقة تتلاءم أكثر مع كل حدث وأنك ستستطيع، خطوة بخطوة، وشيئاً فشيئاً، أن تكبر على صعيد الحكمة؛ لأن الرغبة في التحسن يوما ما وعدم التفكير في ذلك بعدها، يعني من الحتمي والقطعي ألا نصل إلى شيء! إن اكتساب قيم على المستوى الإنساني، هو عمل يومي، وهو نية وانتباه دائم لما يحدث في داخلك، ولردّة فعلك إزاء الأحداث، وإزاء علاقاتك مع الآخرين. هنا يكمن التمرين الأساسي، وهكذا ستستطيع

اكتساب الفضائل تدريجياً، وتغيير فكرك، والبرهان أكثر على فطنتك ومرونتك، وتوسيع نظرتك. كل شيء يؤدي دوراً يومياً عبر هذه النية المتجددة وهذا الانتباه الثابت.

- أفهم جيداً الرغبة العامة، لكن كيف أطبّق الانتباه بشكل ملموس؟ أعطني أمثلة.

- يقول لنا بوذا إن الانتباه، أو يقظة الذهن، يجب أن نبدأ بتطبيقها على أنفسنا، وعلى الأفكار والكلام. عندما تحدث فكرة سيئة، ومرضية أو مرتبطة بمشاعر خوف، وحزن، وغضب، وحقد، فإننا نستطيع تجاوزها تماماً، من خلال اليقظة، مما يسمح بتطورها. إن للأفكار تأثيراً ملحوظاً، لا على ذواتنا فحسب، بل على الآخرين أيضاً. ففكرة سيئة واحدة يمكن أن تكون سماً حقيقياً، يسوّد فكرنا وقلبنا. ويمكن لها أن تصل إلى الآخرين بصفتها طاقة ينتجها عقلنا. إن ما نسميه «عين السوء» في الثقافات التقليدية ليست خرافة. إذ إن حقيقة امتلاك أفكار سلبية تجاه شخص ما يمكن أن يكون لها تأثير سلبي حقيقي على الشخص. والعكس صحيح أيضاً: أفكارنا الإيجابية يمكن لها أن تملك تأثيراً جيداً بالنسبة إلى ذواتنا وبالنسبة إلى الآخرين. إن ما نسميه صلاة في الأديان، هي في البداية فكرة إيجابية منبعثة لصالح الذات أو الآخرين. سواء أكان الله موجوداً أم لا، فإن الصلاة يمكن أن تملك تأثيراً عبر قدرة وحيدة تملكها هذه الفكرة. من أجل ذلك يكون «حارس الأفكار» موجوداً بثبات في كل العادات الروحية للإنسانية.

إن يقظة الكلام تمتلك القيمة نفسها. إذ نرى ذلك بوضوح فلأقوالنا تأثير ملحوظ في علاقاتنا مع الآخرين. فيستطيع الكلام أن يقتل كما يستطيع أن ينقذ. إن التقليد البوذي التيبتي يذكّر بالفضائل الأربعة للكلام وهي: عدم الكذب، وعدم التفوه بكلام جارح، وعدم التفوه بكلام يثير خلافاً وعدم النطق بكلام عقيم. إن الحكمة الشعبية تقول لنا بحق إنه يجب «أن يقوم اللسان بسبع جولات في الفم قبل أن يتحدث».

- بعيداً عن هذا الانتباه في كل لحظة لأفكاري أو لأقوالي، هل يوجد تمارين يوصى بممارستها، تشبه إلى حد ما الطقوس اليومية، التي تمارس كل صباح ومساء؟

- في الحقيقة، يوجد عند كل التقاليد الروحية توصيات من هذا النمط. أستطيع أن أتقاسم معك تلك التوصيات التي قمت بتجربتها. ففي الصباح، تستطيع أن تأخذ وقتاً قليلاً تأملياً لتركّز على نفسك، ولتطرح ما تنويه في يومك، ولتضع فكرك في حالة انتباه لما هو ضروري. ثم تبقى صامتاً لعدة دقائق، دون نية معينة، وأنت في حالة حضور تام لما يحيط بك، واضعاً انتباهك على تنفسك ليساعدك على عدم ملاحقة الدفق المستمر لأفكارك. هذا التأمل البسيط، الذي تستطيع تجربته بتجديده عدة مرات خلال النهار، يساعدك على تطوير نوعية الحضور مع الذات، ومع الآخرين، ومع العالم. إنه يسهّل تأمل الباطن عندما يشجع الهدوء الذهني؛ الأمر الذي سيعطي يومك عطراً خاصاً. سيعزّز وجود عدة مسافات أيضاً بالنسبة إلى أفكار مربكة ومشاعر ستحدث على مر ساعات اليوم، لأنك خلال التأمل، ستعتاد على ملاحظتها.

- استحضرت التأمل. فهل هناك وضعية معينة لاتخاذها، وما طريقة ممارسته، وما المكان المناسب؟

- كل ذلك ثانوي جداً! تستطيع أن تتأمل أيضاً في غرفتك أو في صالونك، لكن أيضاً في السيارة، وفي قطار الأنفاق، وعندما تمشي، إلخ. في البداية وقبل كل شيء التأمل، طريقة عقلية: أن تكون منتبهاً، وحاضراً لكل ما هو كائن. من أجل ذلك، تتعلم الملاحظة بطريقة حيادية ومفصولة عمّا يحصل في داخلك. تترك أفكارك تمضي دون ملاحقتها وسيكون من المفيد توجيه انتباهك نحو تنفسك، أو نحو أحاسيسك الجسدية، بهدف الخروج من الدفق المستمر للعقل. لكن ذلك يمكن ممارسته في كل مكان وفي أية لحظة. الأهم، هو البقاء منتبهين خلال كل التمرين وتجديده، وذلك لا يدوم إلا بضع دقائق، في معظم الأحيان. ممارسة الانتباه هذه ستسمح لك أيضاً، على مر الوقت، بأن تكون أكثر نقاء وأكثر يقظة لما تفعل.

- هل تنصح بممارسة هذا الانتباه في المساء قبل النوم؟

- بقدر ما هو ثمين أن تطرح نية ليومك في الصباح، فقد يكون مفيداً أن تقوم بحساب صغير لنهارك قبل النوم. هذا ما كان يدعو إليه القدماء، واستأنفه بعد ذلك علماء الدين المسيحيون، وسمّوه «اختبار الضمير». ويمكن أن يأخذ هذا عدة دقائق، تحاول خلالها تلخيص نهارك من وجهة نظر روحية: ماذا فعلت من خير كثير أو قليل؟ هل يمكن أن أكون قد أسأت إلى شخص ما؟ هل كنت منتبهاً حقاً؟

- عندما كنت طفلاً تلقيت تعليمي في مدرسة كاثوليكية، وقد يذكّرني ذلك بذكريات مؤلمة! كان يجب علينا ممارسة تأنيب الضمير كل

مساء لمعرفة ما إذا كنا قد أخطأنا، مما جعلني في ذلك الوقت أنمي في داخلي شعوراً مرضياً بالذنب، استهلك مني سنوات للتحرر منه.

- ليس الشيء نفسه. فإن امتحان الضمير، في المعنى الفلسفي، الذي كان يمارسه القدماء، ليس اتهاماً ذاتياً تحت أنظار إله ما يعتبر غالباً من قبل أجيال القدماء بصفته قاضياً استبدادياً، فهذا يقع في حالة تناقض مع الرسالة الإنجيلية. يتعلق الأمر هنا ببساطة بامتلاكك وقتاً صغيراً للاستبطان، يسمح لك بملاحظة نفسك ورؤية ما إذا استطعت إتباع ما نويته في الصباح أم لا، وإذا ما كنت قد استطعت تحسين نفسك في هذا المجال أو ذاك، وإذا كان لديك ردة فعل إيجابية أو سلبية إزاء أحداث غير متوقعة، إلخ. ومن خلال ذلك لا يتعلق الأمر بالحكم عليك، وإنما بضبط إيقاع حياتك بشكل أفضل، كما لو أننا نضبط آلة موسيقية، لكي تستطيع في كل يوم أن تتوافق مع ذاتك، ومع الآخرين ومع العالم بطريقة أكثر استقامة.

يوجد أيضاً ممارسة يومية بسيطة أوصيك بها بشدة: إنها الشكر. في اللحظة التي تستيقظ فيها صباحاً، اشكر الحياة لكونك حياً وبصحة جيدة (إذا كنت في تلك الحالة)؛ في المساء، عندما تنام، اشكرها على ما جعلك سعيدا خلال اليوم. اشكر كل مرة تشعر فيها بفرح، يغمر قلبك، وتستقبل فيها خبراً جيداً، وتعطيك الحياة هدية، تشعر فيها بالسلام. وعندما ستتطور في مجال الحكمة، ستتعلم أيضاً أن تشكر صعوبة ما، أو إخفاقاً أو محنة؛ لأنك ستفهم بأن كل عائق يمكن أن يكون مصدر ازدهار، ووعي وحب. ممارسة الشكر هذه، التي أمارسها كل يوم منذ سنوات، لديها تأثير في زيادة الحب والفرح في قلبنا.

- تتحدث عن حكم وعن مواعظ، تعلّمها الفلاسفة في العصر القديم عن ظهر قلب؛ ليكونوا جاهزين لمواجهة كل حدث طارئ. هل تستعين بهما أنت؟

- نعم ولا! لا، إذا لم أتعلم عشرات الحكم في الحياة كي أستعين بها عند الضرورة. لكن نعم، لأنني، منذ وقت طويل جداً، تعلمت عادة التدوين، عبر قراءاتي العديدة، لعبارات أو أفكار، أجدها مساعدة لي أو مناسبة بشكل خاص. منذ عدة سنوات، أضع واحدة مما أدونه صباح كل أحد على صفحتي الشخصية على الفيسبوك لأشاركها مع قرّائي، وكما تستطيع الملاحظة، فإنني لا أفتقد المشاركة أيضاً في حواراتي مع الجمهور وفي كتبي. فإنني شخصياً، أجد كثيراً من العزاء، عندما أحتاج تلك العبارات، سواء أكانت في الشعر أم في الموسيقى مثلما أجد ذلك في الفلسفة. إنني بحاجة إلى أن أغذي قلبي وإحساسي، صحياً، مثلما أغذي ذهني!

- في الحقيقة، من خلال بعض مؤلفاتك التي قرأتها أو المحاضرات التي شاهدتها لك، تصرّ كثيراً على التوافق بين الذهن والقلب والجسد. صحيح أن هذه الأبعاد الثلاثة مفصولة غالباً. إنني أعرف بالتأكيد فروعاً كاليوغا، وفلاسفة مثل سبينوزا، يرفعون من قيمة الربط الوثيق بين الجسد والذهن، لكنهم لا يهتمون باستدعاء القلب بشكل خاص.

- ومن أجل ذلك يبدو لي أنه من الضروري تقليل المسافة وتحقيق الانسجام بينها! كم هو مؤسف رؤية أناس يطورون جسدهم دون

أن يعطوا أية أهمية لعقلهم! أو رؤية مفكرين لامعين، يملكون قلباً مغلقاً، أو جسداً متوتراً دوماً! إننا في الحياة، نجد كينونتنا تعمل بصفتها كلاً واحداً: عقلنا، وقلبنا، وجسدنا، هي دوماً، سواء أكنا واعين أم لا، ملتحمة بشكل حميمي. إن لأفكارنا ولمشاعرنا تأثيراً ملحوظاً على جسدنا، وعلى نقيض ذلك فإن صحتنا تؤثر بشكل كبير على عواطفنا وأفكارنا. كل شيء مرتبط، وإذا لم تستطع الحكمة إلا التأثير على ذهننا، فستكون حكمة فقيرة جداً وعقلانية بشكل محزن. إن بحث الحكمة يخص كثيراً عقلنا مثلما يخص قلبنا، وعواطفنا، وجسدنا الفيزيائي. من أجل ذلك فإنني أعرّف الحكمة قبل كل شيء بصفتها فناً للحياة. وفناً للتنفس، وللأكل، وللتفكير، وللإحساس، وللشعور، وللنظر، وللسمع، وللتذوق، وللمس، وللحب. إن الحكمة هي النقيض الكلي لحياة زاهدة محتقرة للجسد والمشاعر: إنها فن الاستمتاع الصحي بالحياة بكل أبعاد كينونتنا. أنا مقتنع بأنه عندما يتم الاعتناء بكل تلك الأبعاد، عندما نوفّق بينها نتعلم العيش جيداً بشكل حقيقي. إنه طريق لكل حياة، لكنه بالنسبة إلي من أجمل ما يكون.

إن ذاك الذي يطمح لحياة جيدة وسعيدة يبدأ بالاهتمام بطريقة تنفسه وأكله. وقد ساعدتني اليوغا كثيراً على التنفس أفضل وعلى أن أنتبه لتنَفّسي، ومنذ عدّة سنوات، أسعى إلى تغيير غذائي بشكل جدي، وذلك لأسباب صحية أكثر من كونها أسباباً أخلاقية: هي احترام مصلحة الحيوان والكوكب. إن الأكل الصحي، والمحلي، وتقليل أو استهلاك اللحم الحيواني أو إلغاؤه، هو اعتناء بالذات، وبالآخرين وبالعالم.

- يجب امتلاك وسائل الطعام الصحي!

- إنها مشكلة مغلوطة. بالتأكيد، الطعام المحلي والصحي أغلى - إلا إذا كنت تزرع بنفسك خضرواتك - بدلاً من شراء منتجات مستوردة من السوبر ماركت المملوءة بالمبيدات. لكن بالتوازي، إذا قللنا بشكل ملحوظ استهلاكنا اللحوم وكل المشروبات السكرية (المشروبات الغازية وغيرها) التي تشكّل كارثة لصحتنا، فميزانيتنا ستحقق توازناً. يمتلك أكل القليل من اللحم أربعة مؤثرات ملحوظة: أن نقوم بعمل مفيد للطبيعة؛ لأن تربية الحيوان الصناعية المكثفة هي كارثة بيئية (احتباس حراري، نضب منابع المياه، إلخ)، ونتجنب أن تربى آلاف الحيوانات، وتقتل، وهي تتألم؛ فنحسّن صحتها (تطالب منظمة الصحة العالمية بشدة بتقليل استهلاكنا للحم الذي يعد مسؤولاً عن أمراض عدّة للقلب ولا سيما الأوعية الدموية) ونستطيع أن نقتصد لشراء أطعمة أخرى ذات منشأ طبيعي وصحي.

- أن نصبح نباتيين صعب جداً نظراً إلى عاداتنا الغذائية. وإن كنتُ مقتنعا بهذه الضرورة، فذلك يبقى خياراً متطلباً، يحتاج إلى حرمان للوهلة الأولى!

- إننا لا يمكن أن نصبح نباتيين في ليلة وضحاها، وهذا ما يتوصل إليه القليل من الأشخاص في الواقع، وأنا أولهم، لكن يمكننا التوجه نحو النباتية بالتقليل المتدرج من استهلاك اللحم والسمك. وهذا ما يسمى «التحول نحو الغذاء النباتي» الذي أشكّل جزءاً منه. لا أشتري اللحم كثيراً، والسمك الوحيد الذي أشتريه هو الصيد

المحلي، بالقرب من منزلي في كورسيكا. لكن يحدث لي أن آكل اللحم أو السمك في المطعم، عندما لا أجد شيئاً آخر يغريني على اللائحة، أو بالأحرى عند الأصدقاء. لا يوجد سوى نوعين من اللحم لا أتذوقهما على الإطلاق: لحم العجل والضأن، لأنه لا يوجد شيء أصعب من تخيل هؤلاء الصغار يذبحون بعد بضعة أسابيع أو أشهر من ولادتهم، فأشعر بالغثيان. أتمنى أن أصبح نباتياً يوماً ما؛ لأنني أعتقد بأن هذا مفيد للكوكب، وللحيوانات ولصحتي، سأذهب إلى ذلك عبر إيقاعي الخاص، دون أن أجبر نفسي ودون تأنيب ضمير. علاوة على ذلك، أفهم بحث الحكمة بطريقة عامة: وهو التطور في اتجاه يبدو بالنسبة إلينا هو الأفضل، ونسير عليه حسب إيقاعنا الخاص، دون جلد الذات ودون ضغوط نفسية مفرطة.

سأضيف شيئين بالنسبة إلى الطريقة النباتية. فمع المؤسسة التي أنشأتها «جميعنا من أجل الحيوانات»، وبربطها مع مختلف الخبراء، والمؤسسات، ومربي الدجاج، نعمل على وضع علامة أخلاقية للرفق بالحيوان، ليستطيع كل فرد أن يشتري ما يحتاجه من لحم بوعي، وذلك عندما يختار أن يدفع ثمناً أغلى؛ ليضمن أن الحيوان تألم قليلاً، فيتحرر، ولو لمرة أخرى، فيقلل من استهلاكه. ومن ثم، عند تقليلي لاستهلاك اللحوم، تعلمت الطبخ بشكل مختلف، وتعلمت اكتشاف بروتينات ونكهات جديدة، سمحت لي بالاستمرار بالأكل بلذة وبطريقة متوازنة، فأنا أهيم بالطبخ.

لكن الاعتناء بالجسد، يعني القيام بالتمارين الرياضية يوميا، ويعني النوم كفاية قبل منتصف الليل، ويعني قبول أية انفعالات، ويعني أن تكون منتبهاً

لأحاسيسك. أعترف أيضاً أنني أحتاج إلى كثير من التطور؛ لأحقق كل هذه المجالات، ولا سيما على صعيد الرياضة والنوم. كما يقول جوفينال، إن هدف الحكمة هو «العقل السليم في الجسم السليم»، وسأضيف «في القلب السليم».

- أود العودة بالتحديد إلى سؤال الحب، لقد استحضرتَه بشكل مختصر جداً قبل الحديث عن الفضائل. قلت: إن الحب كان في قمة الحكمة، لكن كيف نحب بطريقة متوازنة؟ كيف نوفّق بين حب الرغبة الذي يثير العاطفة، والحب الكوني غير الأناني؟ هل يمكننا تعلم الحب بشكل أفضل؟

- إن الحب هو شعور متنوع كلياً ومعقد إذ يبدو، في الواقع، من الصعب تبيان ما يحدث فينا، ما هي دوافعنا وتوقعاتنا عندما نحب. عندما أقول لشخص ما «أحبك»، ذلك يمكن أن يعني أيضاً أنه «لدي رغبة فيك» أكثر من أي «أرغب في أن تكون سعيداً»، «أنا بحاجة إليك، وبحاجة كي تعتني بي»، «أنا سعيد بوجودك»،... إلخ. وفي العلاقة الغرامية، فهذا يعني وجود ما هو أقل من كل هذا في آن واحد! إن Eros (حب الرغبة، مرتبط بالحاجة)، وphilia (حب الصداقة، والذي يتضمن خياراً وتبادلاً) وagapé (حب العطاء، المجاني كلياً) هي في معظم الأحيان مترابطة بشكل وثيق، حيث يوجد تعقيد في العلاقات الغرامية وغموض. نكرر دوما إن من المهم أن نتعلّم معرفة ذواتنا، ومعرفة تمييز دوافعنا الحقيقية. لدينا الحق في عيش شغف الهوى، لكن بقدر ما نكون واضحين في هذه العلاقة فإننا على هذا الأساس نخسر

كل رؤية واضحة! فنخسر على كل حال، كل رؤية موضوعية. إننا نلقي، في معظم الأحيان، نواقصنا، وتوقعاتنا، وحاجاتنا على الآخر. وقد حلل سبينوزا ذلك جيداً. فقد عرّف بإيجاز وتحديد تام، الحب بأنه «فرح مرتبط بفكرة سبب خارجي». إنه محدد جداً: فالفرح لا يأتي من سبب (الشخص الذي نحبه على سبيل المثال)، بل من الفكرة التي نملكها عن ذلك. وقد ذكرت في السابق، أن هذه الفكرة، يمكن أن تكون ملائمة أو غير ملائمة، صحيحة أو خاطئة. عندما نعرف الشخص جيداً ونحبه على ما هو عليه حقاً، فالفرح الذي سينتج عن ذلك هو فرح «نشط»، عميق ومستمر. وبالمقابل، عندما نعرف الشخص بشكل ضئيل ونلقي عليه كل توقعاتنا وحاجاتنا الطفلية، التي لم نجد لها حلاً - ما هو مألوف في حالة شغف الهوى - فالفرح هو «سلبي»، كثيف لكنه خطر، ويخبرنا سبينوزا بأن الفرح سيتحول عاجلاً أم آجلاً، عندما يتوقف الوهم، إلى حزن، وأحياناً يصبح الحب حقداً (سنتهم الآخر بإيهامنا أو خيانتنا).

إن هذه السمة المدمرة للحب ليست مرتبطة إلا بشغف الهوى. يمكن له أن يظهر في علاقة الصداقة أو في علاقة الأهل وأطفالهم، عندما تتأسس تلك العلاقة على الحاجة وعلى الهيمنة على أطفالهم، أكثر من العطف والعطاء. إنها الحالة النمطية للأهل الذين يحبون أطفالهم بطريقة مشروطة، مع قوة شعورية لامتلاك الطفل، والرغبة في تحقيق ما يرغبون (إنهم يبحثون عبر ذريتهم عن تحقيق ما عجزوا هم عنه). إذا حاول طفلهم الهروب من سيطرتهم، وذلك عندما يتخذ، على سبيل المثال، خياراً في الحياة، لمهنة ما أو لدين معارض لهم، يصبحون عنيفين، ويمكنهم أن يقطعوا علاقتهم

به نهائياً، فيتهمونه بأنه جعلهم تعساء أو قام بخيانتهم. لقد كان الطفل هناك، وفي غالب الأحيان بدون وعي، ليعوض فراغاً، ونقصاً، وعندما يبحث عن الهروب من سيطرة هذه الأوامر، يصبح خائناً. من أجل الازدهار بطريقة صحيحة، ومستمرة، وعميقة، يدعو الحب إلى الوعي بالذات، وإلى الوضوح، وإلى العطف، وإلى العطاء. سواء أكان الآخر شريكنا، أم صديقنا أم طفلنا، فلنعِ دوماً أنه لا ينتمي إلينا. إن الحب في الحقيقة هو إرادة السعادة للآخر، بقدر ما يريدها لنا، وهذا ضروري في العلاقة بين الشريكين أو في علاقة الصداقة. إننا سعداء لسعادة أهلنا، وإنْ كانت خياراتهم مختلفة عن خياراتنا. وقد عبّر عن ذلك الشاعر اللبناني جبران خليل جبران في كتابه الرائع «النبي» عندما كتب تحديداً فيما يخص الأطفال: «أبناؤكم ليسوا لكم، أبناؤكم أولاد الحياة» من أجل ذلك فإن تيارات الحكمة تدعونا إلى الحب دون تعلّق.

- كيف يكون ذلك ممكناً؟ هل يمكن أن نحب شركاءنا وأطفالنا، ونحن في حالة عدم التعلق بهم؟

- أن يتعلق قلبنا بقريب لنا، هذا أمر مألوف، أما نقيض ذلك فسيكون مقلقاً! عندما نتحدث في الحكمة عن حالة «الانفصال» أو «عدم التعلق»، نتحدث عن الفكر الذي لا يعتاد على الآخر، ولا يريد الاحتفاظ به بأي ثمن، فلا ينظر إليه بصفته شيئاً، أو ملكاً له. يتعلق الأمر بعدم الدخول في علاقة اتكالية: أي أن نحب الحياة دون أن يمر هذا الحب، بشكل حصري، بمنظور مشوّه للعلاقة العاطفية. إذاً، نستطيع أن نكون مرتبطين (عبر القلب) دون ارتباط (بصفته امتلاكاً أو اتكاليةً).

إن عقلنا قادر على تحريرنا من التعلق (امتلاك/ واتكالية)، الذي يمكن أن يؤدي إلى تعاسة أو دموع. إن «عدم ارتباطنا» ليس نتيجة لنقصان الحب، لكنه نتيجة حب متميز. ذلك أننا نريد محبة الآخر دون امتلاكه ودون الاعتماد عليه، فننمي «عدم الارتباط». من البديهي أننا نستطيع أن نكون «مستقلين» عبر غياب الحب. لكن لا يجب علينا أن نخلط بين نوعي الاستقلال؛ لأنهما مختلفان كلياً.

- لكن إذا نمينا عدم الارتباط، فكيف يمكن له ألا ينهار عندما يموت قريب، على سبيل المثال؟

- إن خسارة أب، وشريك، وصديق غال علينا يغرقنا في حزن عميق؛ لأننا ابتعدنا عن كائن نحبه. لكن الحزن لن يكون نفسه، إذا كنا في حالة ارتباط - امتلاك/ واتكال أو من جهة أخرى في حالة عدم تعلق. في الحالة الأولى، كل عالمنا ينهار، والحزن لخسارة قريبنا يرجع إلى ما نعانيه من نقص، وإلى هشاشتنا العاطفية، بالأحرى إلى خوفنا الخاص من الموت. أما في الحالة الثانية، فإننا نقبل خسارة هذا الكائن الغالي علينا بقبولنا للقانون الكوني في الولادة والموت، ونحن نعرف أن رحيله يمكن أن يكون جيداً بالنسبة إليه وأن نتذكر كل اللحظات السعيدة التي أمضيناها سوياً. يمكن لفرح ما أن يكون حاضراً في قلب الحزن. وقد اختبرت ذلك عند موت شريكتي وعند موت أبي. من البديهي ومن حقيقة الإيمان بأن روحهما استمرت في الوجود، ولكن في بُعد آخر، قد ساعدني جدا. أكد مونتاني أنه خسر خمسة من أطفاله «دون استياء». لا يعني ذلك أنه لم يشعر بالحزن، لكن لكونه لم

يكن غاضباً على الحياة، فإنه قبل قوانينها. وما يؤكد ذلك جيداً هذه القصة القصيرة الطاوية: «توفيت زوجة شوانغ تسو، فذهب هوي تسو ليقدّم له العزاء. فوجد شوانغ تسو جالساً وقدماه متباعدتان على شكل سلة، وكان يغني ضارباً بإيقاع معتدل على وعاء زجاجي (زبدية)؛ فقال له هوي تسو: إن عدم بكائك على موت تلك التي رافقتك حياتك وربّت أطفالك، مقبول، أما أن تغني عازفاً على وعاء، فذاك أمر عظيم جداً! فقال شوانغ سو: ليس هذا مطلقاً، فمن الطبيعي أن أكون متأثراً في لحظة موتها، لوقت قصير، لكن عندما تأملت بداية الحياة، اكتشفت أنها في الأصل لم تكن حية، ليس لم تكن حية فقط، بل لم يكن لديها شكل، ليس فقط لم يكن لديها شكل، بل لم يكن لديها روح. شيء ما عابر ولا يمكن الاستحواذ عليه تحول إلى روح، والروح تحولت إلى شكل، والشكل إلى حياة، والآن انظر فقد تحولت الحياة إلى موت. كل ذلك يشبه تتابع الربيع والصيف والخريف والشتاء. في هذه اللحظة، ترقد زوجتي في مثواها العظيم. وإذا تأوهْتُ بنحيب وصراخ، فهذا يعني أنني لم أفهم درس القدر. ومن أجل ذلك فأنا أتجنب معارضته».

من سجن الأنا إلى تحرر الذات

- ربطتَ لعدة مرات الحكمة بالحرية دون أن تشرح هذه النقطة. كيف تستطيع الحكمة جعلنا أكثر تحرراً؟

- لا أفكر بالحرية السياسية، ولا بتعدد تياراتها، ولا بحرية الوعي، والتعبير، على سبيل المثال، لكن بالحرية الداخلية. نستطيع أن نملك عدة حقوق سياسية، وأن نكون عبيدا لأهوائها أو معتقداتها أو أفكارها المغلوطة. إنها الملاحظة التي نستطيع جميعنا القيام بها، حين نتبع عدداً من الحكماء، بدءاً من سبينوزا في كتابه الجوهري «الأخلاق» الذي يشكل طريقاً حقيقياً نحو الحرية.

- أعتقد أن سبينوزا لا يؤمن بالحرية؟

- إنه لا يؤمن بالحكم الحر، أي بتنظيم طبيعي، يدفعنا إلى القيام بخيارات ستكون متحررة من كل القيود الداخلية. لكنه يؤمن بالتحرر من عبودية الأهواء. نستطيع أن نقول: بالنسبة إلى سبينوزا، فنحن لا نولد أحراراً بما أننا محكومون كلياً بعواطفنا اللاواعية، والمرتبطة في معظم الأحيان بأفكار غير ملائمة، لكننا نستطيع تحقيقها، حين نشتغل على تصحيح أفكارنا، ومعتقداتنا، ورغباتنا ومشاعرنا. إن ذلك يشمل كل طريق للتحرر الداخلي يقترحه هذا الفيلسوف. إن سبينوزا هو أعظم محرر سياسي وروحي معاً. إنه محرر سياسي؛ لأنه أول مفكر في عصر التنوير يطرح نظاماً

ديموقراطياً مؤسساً على الفصل بين السلطات السياسية والدينية، ويضمن حرية الوعي والتعبير. وهو محرر روحي؛ لأنه يذكّر، على نقيض فلاسفة آخرين عاشوا في عصر النهضة، ولحقوه في القرن الثامن عشر، أن ما يهم الإنسان هو تحرير فكره من سجن الأفكار غير الملائمة ومن العواطف السلبية التي تصدر عنها. فحين نتعلم التفكير بشكل أفضل سنصل إلى إعادة توجيه رغباتنا نحو أشخاص أو أشياء، تجعلنا نكتسب قيماً، تضعنا في حالة فرح فعّال ومستمر. بهذه الطريقة نحرر أنفسنا من عبودية الأهواء، وهي أهم شيء؛ لأننا لسنا واعين لها، فنصبح أناساً أحراراً. وقد شرح سبينوزا بشكل رائع على مستوى فلسفي ونفسي مشكلة الحرية، وهي المشكلة التي كان حكماء العصر القديم قد طرحوها. على سبيل المثال، فإن الرواقيين يقولون: إننا ممثلون في مسرحية. لسنا نحن من اخترنا أن نؤدي دوراً فيها. لكننا أحرار في أن نؤدي دورنا بشكل جيد أو سيء، أن نسعد بلعبها أو أن نشكو منها. بالنسبة إليهم، كما بالنسبة إلى أبيقور، فإن الحرية الحقيقية داخلية، تتجلى في طريقة ردة فعلنا إزاء الأحداث.

- أفكر أيضاً بالحكماء الشرقيين الذين يدعون منذ قرابة ثلاث آلاف سنة إلى «تحرر الفكر». هل هذه هي الأفكار نفسها لحكماء الغرب؟

- إنها الفكرة نفسها تماماً، لكن يُعبّر عنها في سياق ثقافي هندي بالإيمان في قانون karman وفي التقمص. في الحقيقة، الهنود مقتنعون بوجود قانون كوني للسببية: كل فعل يولد نتيجة. يفكرون أيضاً بأن كل كائن حي يملك شيئاً بسيطاً من الألوهية (brahman لا شخصي)

في داخله: atman. إن الـ atman يتقمص من حياة لأخرى، من جسد لآخر (بما في ذلك الحيوان)، حتى يخرج من الدائرة المستمرة للولادة الجديدة (الـ samsara) ويتحرر من الجهل ويعي بأنه ليس الأنا المتوحد معها، بل هو جزء من الألوهية. إنه تحقيق الذات. وحين يمر الإنسان من الأنا إلى الذات، وذلك عبر وعي روحي، يحرره من الجهل، ويحرره أيضاً من سجن الأهواء، عندئذ يصل الكائن إلى الخلاص (moça) الذي يدعوه البوذيون اليقظة. والذي لا يمكن أن يعاد تجسيده مرة أخرى، فيعيش في حالة نعيم أبدي، إن nirvana، لديها بعد آخر فمن الصعب فهمها أو وصفها بمفاهيمنا الإنسانية وكلماتنا.

- هل تستطيع أن تشرح بشكل أفضل هذا الاختلاف بين الأنا والذات؟ لماذا نحن أسرى الـ (الأنا) وفي البداية، كيف تعرّف الأنا؟

- حسب الفلسفة العظيمة النفسية لـ vedanta الهندوسية، هويتنا الأعمق هي atman، وهي شرارة إلهية فينا (تعادل الـ logos الرواقية). المشكلة هي أننا ننسى ذلك بسرعة، لأنه منذ الأسابيع الأولى لوجودنا، نبدأ بالتماهي مع الـ (أنا). إن الأنا عموماً، هي التي تتوافق في بعض الأحيان مع «أعماق» النفس، وهي مشاعر الوجود بصفته فرداً منفصلاً ومتفرداً. وهي تتشكل من خلال نظرة الآخرين وكل الأفكار والمشاعر التي تصدر عن ذلك كله. فعبر نظرة الأم، يفهم الطفل الصغير أنه مستقل عنها وأن لديه هوية، وحاجات، ومصالح تخصّه. إذن، سيذهب للبحث عما

يشعره بالارتياح، وعما يناسبه؛ وسيتخلص مما هو غير مناسب ومما يشعره بالانزعاج أو يكون مناقضاً لمصالحه. إن الأنا ضرورية للبقاء على قيد الحياة. بدون الأنا، نصبح جميعنا ذُهانيين وغير قادرين على الدفاع عن أنفسنا. إن الأنا تسمح لنا بامتلاك شعور لوجود مستقل، وبأن نبحث عما هو خير لنا، وأن نحمي أنفسنا من الأخطار. يشكل البناء المنظم جيداً لـ الأنا أو أعماق النفس ضرورة للتطور النفسي بالنسبة إلى الفرد. لكن تحدث مشكلتان. الأولى، هي أننا نستطيع أن نصبح مركزين كثيراً على أنفسنا وحاجاتنا فننسى الآخرين. إن على التربية أن تملأ هذه المهمة الثنائية بمساعدة الطفل على اكتساب نفس مبنية جيداً، يعني تقديراً صحيحاً وحباً للذات، لكن أيضاً أن يكون قادراً على مراعاة الآخرين ومشاركتهم. إن العبارة التوراتية «أحبب أخاك كما تحب نفسك»، أو القاعدة الشهيرة الذهبية، الحاضرة في كل الثقافات القديمة، «لا تتصرف إزاء الآخرين كما لا تحب أن يتصرفوا إزاءك» إن هاتين العبارتين تلخصان جيداً هذا التوازن، وهو أن تجد في حب الذات وحب الآخرين، احترام الذات واحترام الآخرين، وأن تظهر كأن هذين البعدين مرتبطان بشكل حميمي. إن ذاك الذي لا يحب ذاته ولا يحترمها سيواجه معاناة كبيرة من أجل أن يحب الآخرين ويحترمهم.

- أفهم جيداً أنه من الضروري إيجاد هذا التوازن بين حب الذات وحب الآخرين، بين الأنانية والغيرية. لكن كيف يتم التحرر بداية من الأنا؛ لنمضي نحو الذات، ولماذا؟

- إنها المشكلة الثانية التي تطرحها الأنا: التي تؤدي بنا إلى التماهي معها! إنها تبنى من خلال نظرة الآخرين، وتتكون من كل الأفكار والمشاعر التي تنتج عنها، لكنها لا تكوّن هويتنا العميقة، التي تعتبر جوهراً إلهياً أو كونياً، والتي تسمى: الذات، عندما نفهم أننا لسنا سوى هذه الأنا. يؤلف هذا الوعي شكلاً من أشكال اليقظة والاستنارة، ويسمح بألا نتماهى مع أعماقنا، التي تحيا دوماً عبر نظرة الآخرين، وهي حساسة للمجاملات وللنقد، وتبحث عن الدفاع عن مصالحها بأي ثمن، إلخ.

إن تحقيق الذات يمكن أن يوصف جيداً من ناحية روحية في إطار الحكم الشرقية، أكثر من وصفه عبر الناحية النفسية ومن خلال إطار الصيرورة الفردية اليونغية، التي ذكرناها سابقاً. والتي تشكل تغيير النظرة عن أنفسنا وعن علاقتنا مع الغالم، بقدر ما نحقق أنفسنا فنكون جزءاً من كل، وتكون هويتنا العميقة متفردة جداً أكثر مما نتخيلها وترتبط في الوقت نفسه مع المطلق، وهو طاقة كونية موجودة في كل الكون، تسميها تيارات الحكمة المتنوعة جداً الله، والإله، ولوغوس، والتاو، وبراهما، وروح العالم...الخ

حكمة الأطفال

- قلتَ في بداية حوارنا: إن الحكمة الفلسفية كانت متاحة للجميع، وللأطفال كذلك. أليس ذلك القول مبالغاً فيه قليلاً؟ ألا يتطلب ذلك إدراكا للمفاهيم المجرّدة وإتقاناً للغة، من أجل قراءة نصوص أفلاطون أو أبيقور أم لا؟

- بالطبع. لكنكَ تخلط بين أن تنطق فلسفة، وأن تكتسب معرفة فلسفية. من البديهي أن طفلاً في عمر السابعة لا يستطيع قراءة «نقد العقل الخالص» لكانط، ولا «الأخلاق النيقوماخية» لأرسطو. إن قراءة الأعمال العظيمة لتاريخ الفلسفة لا يمكن القيام بها قبل سن المراهقة، بالنسبة إلى أشخاص أكثر موهبة. إذاً أفهم جيداً أننا بدأنا بدراسة الفلسفة بصفتها علماً، في الصف الأخير في المدرسة، مع أنني أعتقد أننا نستطيع القيام بها منذ الصف الثاني. من ناحية أخرى، إن فعل التفلسف والبحث عن الحكمة نستطيع القيام بها في وقت مبكر. إن أبيقور قد بدأ «رسالة إلى مينيسي» قائلاً: «يجب ألا يتردد المرء في التفلسف وهو في زهرة العمر، كما يجب ألا يَكَل من التفلسف وهو في خريف العمر. لا يكون الوقت أبداً مبكراً ولا متأخراً عندما يتعلق الأمر في العناية بالروح. إن مَثل مَن يقول: إن الوقت لم يَحِن بَعدُ للتفلسف أو فاتَ، كمثل مَن يقول إن الوقت لم يَحن أو قد فات لإدراك السعادة. على المرء أن يتفلسف شاباً

وشيخاً، وفي الحالة الثانية لاستعادة وهج الشباب بِتذكر الأيام الخوالي، وفي الحالة الأولى وإنْ كان شاباً، فإنه هادئ مثلَ شيخ، في وجه المستقبل. يتعين إذاً البحثُ عن وسائل لاكتساب السعادة، لأن المرء حين يجدها يملك كل شيء، وحين يفقدها يفعل كل شيء من أجل الحصول عليها».

في الواقع، يطرح الأطفال، في عمر مبكر، أسئلة تخص فن سعادة الإنسان. ويواجهون صراعات داخلية، وصعوبات عاطفية، فيتساءلون كيف يستطيعون حلّها. كيف يتعلمون إدارة عواطفهم. يقول لنا أرسطو: إنّ الفلسفة تبدأ مع الدهشة. بما أننا نندهش فإننا ندخل في صيرورة من التساؤلات ومن البراهين المنطقية. يمضي الأطفال وقتهم في الدهشة، وفي التساؤل، ويستفهمون صغاراً جداً حول معنى الحياة. أمارس منذ عدة سنوات الفلسفة في صفوف الأطفال الذين ينتقلون من رياض الأطفال حتى الابتدائية. في كل مرة أطلب من الأطفال، الذين تتراوح أعمارهم بين خمسة أعوام وإحدى عشرة سنة، أن يقولوا ما هي المواضيع التي يريدون التطرق إليها خلال ورشة الفلسفة، فيجيبون دوماً: السعادة، ومعنى الحياة، والموت، والحب، والحرية، إلخ. جميع هذه الأسئلة العظيمة تفتنهم. وأجوبتهم في معظم الأحيان مأخوذة من حكمة عظيمة!

- لكن، أليست ورشة الفلسفة مع الأطفال نقلاً للمعرفة كما هي في الصفوف الأخيرة؟

- الأمر مختلف جداً. في ورشة الفلسفة، يضع المقدّم (سواء أكان مدرساً أم شخصاً بالغاً آخر) نفسه في المستوى عينه للأطفال. فلا يتبنى وضع ذلك الأستاذ الذي يعلّم. يحدث ذلك بأن يجلس

في دائرة، مثل كل الأطفال، وبعد ذلك، لا يقوم إلا بإنعاش النقاش، دون أن يقول ما يفكر به، أو أن يحكم على ما يقوله الأطفال. يشرح لهم أنهم ليسوا هنا ليكرروا ما سمعوه أو ليأخذوا علامة، بل ليعبّروا عن أفكارهم، وليسمعوا أفكار الآخرين وليتطوروا جميعهم في التفكير. في المرة التي يتم فيها اختيار الحوار، يقوم المقدّم بتنظيم الكلام ونقله من طفل لآخر، متنبهاً إلى ما يرغب جميع الأطفال في التعبير عنه، وإلى ما يصغون إليه بانتباه، ويبقى الأطفال مركزين على الموضوع ويناقشون باحترام، مستخدمين حججاً عقلانية.

- منذ متى وُجدت هذه الممارسة الفلسفية مع الأطفال؟ وهل تستخدم في فرنسا في المدارس الابتدائية؟

- إن فكرة تفلسف الأطفال تطورت في أمريكا الشمالية في السبعينيات، تحت تأثير المربي الأمريكي ماتيو ليمبان. ثم حظيت باهتمام العالم الفرانكفوني، وبشكل أساسي عبر وساطة الكيبيكي ميشيل ساسيفيل والفرنسيين ميشيل توزي وجاك ليفين. ففي عام ٢٠١٨، مورست في سبعين بلداً وتأسس عام ٢٠١٦ منبر لليونسكو تحت مسؤولية الفرنسية إيدويغ كريوتيه، التي اخترعت دبلوماً جامعياً لممارسة الفلسفة مع الأطفال في جامعة نانت. ومن أجل المساهمة في تطوير هذه الممارسة، وبعد أن لاحظتُ الإنجازات الرائعة لخمسين ورشة فلسفية في عدد من البلدان الفرانكفونية، شاركتُ في إنشاء مؤسسة وجمعية SEVE، معرفة الكينونة والعيش المشترك، تحت رعاية مؤسسة فرنسا la Fondation de France، التي تقترح بهدف غير ربحي، على

المعلمين وغير المعلمين، دورات لتعلّم إدارة ورشات فلسفية مع الأطفال ومع المراهقين. وخلال سنتين، اتبّع ما يقارب ثلاثة آلاف شخص في فرنسا، وفي سويسرا، وفي بلجيكا، وفي كندا وفي لوكسمبورغ هذه الدورات. واستطاع عشرات الآلاف من الأطفال أن يكونوا متأثرين بهذه الورشات في المدارس. يوجد العشرات من الجمعيات الأخرى في العالم الفرانكفوني، التي تتبع الهدف نفسه:
Philo jeunes, Petites lumières, les Francas, Philocité, Educphilo, …

إنها حركة حقيقية وعميقة، وإن واجهتْ مقاومة من هؤلاء الذين يعتقدون بأن التفكير الفلسفي لا يستطيع إلا أن يبدأ في وقت متأخر.

- أستطيع فهم هذه المقاومة؛ لأنني لا أستطيع تخيل أطفال عمرهم أقل من عشر سنوات قادرين على القيام بتفكير فلسفي عميق جداً، يشابه تفكير الراشدين!

- في الفصل السادس والعشرين في الجزء الأول من كتاب مونتاني «محاولات»، يؤكد أن «الطفل قادر [على التفلسف]، منذ فترة الرضاعة، أكثر من تعلم القراءة والكتابة». في الواقع، كما قلت، فمنذ عمر صغير، يستطيع الأطفال أن يطرحوا أسئلة عميقة حول معنى الحياة، والله، والموت، والسعادة، إلخ، ومنذ عمر ست سنوات أو سبع سنوات، يكونون قادرين على النقاش، وعلى المجادلة، وعلى طرح إشكاليات. أتذكر واحدة من كل ورشاتي الفلسفية الأولى في قرية صغيرة من قرى كاب كورس، مع أطفال في عمر يتراوح بين الست والسبع سنوات. كانوا يريدون الحديث

عن السعادة. إن عدداً من الأطفال طوروا فكرة أن السعادة تتوقف على تحقيق رغباتنا. وأحد هؤلاء الأطفال رفع يده وعارضهم مؤكدا أنه إذا كانت هذه الفكرة صحيحة، فإننا لن نكون سعداء بشكل حقيقي، لأننا نحتاج دوماً إلى رغبات جديدة. وأضاف: «فهمت وأنا في عمر خمس سنوات أنني إذا أردت أن أكون سعيداً، فإنه يجب عليّ أن أكون مسروراً بما كنت قد ملكته في السابق»، فسألته: «هل تدعى سينيكا؟» فأجابني: «لا جوليان». وانتهى بإقناع جميع من في الصف بأن السعادة لا تكمن فقط عبر إشباع الرغبات. فسأله طفل آخر: «ما هي السعادة بالنسبة إليك إذاً؟» بعد وقت من التفكير أجابه: «إنه فقط أن تحقق كينونتك، وأن توجد في العالم». في الواقع، فإن سينيكا لم يقل أفضل من ذلك! علمتُ بعد بضعة أيام أنه رجع في المساء إلى بيته وقال بحماسة: «ماما، ماما، يا لها من سعادة عندما أفكر بأني بلغت سن السابعة والنصف لأمارس الفلسفة!».

- إن ما يستمتع به الأطفال، هو قدرتهم على قول ما يفكرون به حول مواضيع مهمة، لا يتم سؤالهم حولها؛ لأننا نعتقد بأنها مواضيع مخصصة للكبار.

- لا تقدم الورش الفلسفية فرحاً عظيماً للأطفال، لأنها المكان الوحيد الذي يستطيعون فيه التعبير بشكل حر عن أفكارهم دون أن يُحكم عليهم أو أن يعطوا علامة، بل لأن ذلك يساعدهم على التعلّم، وعلى التمييز، وعلى البرهان، وعلى تطوير فكر نقدي. كما يقول مونتاني أيضاً، فالتعليم لا يجب أن يشمل ببساطة «ملء وعاء

الورود» أو حشو الدماغ كثيراً، بل إشعال شرارة صغيرة، وتشكيل عقول متقنة الصنع، أي أن نجعلها قادرة على الحكم بنفسها. ولا يبدو لي أن هناك شيئاً أكثر أهمية في يومنا هذا من السماح للأطفال بتطوير فكرهم النقدي، والقدرة على التمييز، في وسط يواجهون فيه فيضاً من المعلومات غير المتسلسلة وأحيانا الخاطئة (إشاعات، ونظريات المؤامرة،... إلخ).

يأتي إلى ذهني مثال آخر صادم، مرتبط بموضوع الأخبار. بعد بضعة أشهر من اعتداء باريس الرهيب، نهاية عام ٢٠١٥، قمت بورشة فلسفة في باريس في الصف الأول الابتدائي حول موضوع نموذجي للحكمة: «ماذا يعني النجاح في الحياة؟» كثير من الأطفال ربطوا النجاح في الحياة بقضية السعادة، طفل واحد من بين تسعة أطفال استلم الحديث وقال: «كان الإرهابيون سعداء بقتل الناس. طيب، أنا أعتقد بأن حياتهم لم تكن ناجحة». سألته: «لماذا؟». «لأنه من أجل النجاح في الحياة، فالسعادة أمر جيد، لكن يجب أيضاً احترام الآخرين». ومعظم الأطفال تبنوا وأضافوا إلى هذه الفكرة: «نعم، النجاح في الحياة يعني أن تكون سعيدا لكن شرط عدم إيذاء الآخرين، وأن تكون عادلاً».... إلخ. إذاً أجبت هذا الطفل الصغير، الذي قدّم هذه الفكرة: «هل تعلم، هناك فيلسوف عظيم يدعى سقراط، قال منذ ألفين وخمسمئة سنة الشيء نفسه تقريبا الذي قلته أنت». فأجابني الطفل: «إنني سعيد لمعرفة أن سقراط يفكر مثلي!» أحببت هذا الجواب جداً! اكتشفنا مع ورشات الفلسفة السمة الحقيقية الكونية للعقل الإنساني وللتفكير الفلسفي، الذي ينتج عنه. أعاد الأطفال من خلال ذواتهم، وعبر تفكير مشترك، اكتشاف حقائق وبراهين كان القدماء قد تطرّقوا إليها. وهذا

سيترسخ في ذهنهم مدى الحياة، في حين إذا قدمتُ لهم درساً نظرياً حول «سقراط والحياة السعيدة» أو «سينيكا والسعادة» فإنهم ربما لن يستطيعوا فهم أي شيء أو إنهم سرعان ما ينسون كل شيء.

- استحضرتَ غالباً الفرح بصفته شعوراً مرتبطاً بالحكمة. نلاحظ أن الأطفال الصغار سعداء في معظم الأحيان. هل هذا دليل حكمتهم المبكرة، أم لا علاقة لذلك؟

- يشكل فرح الأطفال الصغار بالنسبة إلي فرحاً كاملاً! لقد خصص الحكماء له كثيراً من الوقت والجهد من أجل اكتشافه! إن الأطفال الصغار لم تغزهم الأنا بعد، فهم يعيشون تماماً في اللحظة الحاضرة ويبرهنون على عفوية كبيرة: وهذه هي ثلاث خصال ضرورية للحكمة. فهي السبب الذي من أجله، يعيشون سعداء جداً، ويتخذهم أعظم أسياد الحكمة مثلاً أعلى. وهكذا ناجى المسيح حواريه الذين يريدون إبعاد الأطفال لأنهم يحدثون ضجة: «دعوا هؤلاء الأطفال يأتوا إليّ، لأن ملكوت السماوات ينتمي إلى أولئك الذين يشبهونهم». وقد حضرت هذه الفكرة في السابق عند الطاوية. فالطفل الصغير غير قادر على أن يحيا وحده وأن يتصرف بعيداً عن أهله، لكن حضوره الفريد يؤثر في البالغين، فهو مركز العائلة. يؤثر دون أن يقوم بأية حركة. إنه في حالة فرح وفي حالة عفوية. وهكذا، فإن نموذج الحكيم الطاوي ليس العجوز الذي يعرف (أو الذي يظن نفسه أنه يعرف) بل الطفل، كما كتب ذلك لاو تسو: «اجعل من نفسك وادياً للعالم، وهذا يعني أن تجسد فضيلة ثابتة، وأن تعود طفلاً صغيراً».

- هناك سمة أخرى للأطفال مرتبطة بالحكمة: وهي قدرتهم على الدهشة!

- هذا صحيح! لكنني سأضيف سمة أخرى وهي دون شك الأكثر أهمية: وهي قدرتهم على قول «نعم» للحياة. الأطفال لا يكونون في حالة رفض أو إنكار عندما تحدث محنة ما. سمعت معلماً يقدّم خدمة لأطفال مرضى بسرطان الدم (لوكيميا) في مستشفى ويقول: إنه كان يفاجئه دوماً الفرح والصفاء المنبعثان منهم، رغم مرضهم الرهيب والموت المرتقب. وقد أكد بشكل أساسي «أن أهلهم هم القلقون وفي حالة تمرد، لا هم». لأنهم يعيشون اللحظة الحاضرة، ولأنهم ليسوا خائفين من الموت، ولأنهم يعرفون الدهشة والتساؤل دون أحكام مسبقة، ولأنهم يقبلون الحياة، ولأنهم يعيشون الفرح، ولأن الأطفال هم مثال لهذه الحكمة التي يحاول بعضنا إيجادها عند بلوغهم سن الرشد، مثلي، ومثلك».

المراجع

- أرسطو، الأخلاق النيقوماخية، ترجمة جول تريكو، باريس، فرين، ١٩٩٤م.
- بروكنر، باسكال، النشوة الأبدية، باريس، غراسيت، ٢٠٠٠م.
- كونت سبونفيل، أندريه، رسالة صغيرة عن الفضائل الكبيرة، باريس، منشورات الجامعة الفرنسية، ١٩٩٥م.
- إيفرنمبرغ، آلان، تعب أن تكون ذاتك، باريس، أوديل جاكوب، ٢٠٠٠م.
- إبيكتيتوس، مبادئ، ترجمة ميرتو غونديكاس، باريس، أرليا، ١٩٩٠م.
- أبيقور، رسائل وحكم، ترجمة مارسيل كونش، باريس، ١٩٨٧م، رسائل إلى مينيسي، ترجمة بيير ماري موريل، باريس، فلاماريون، ٢٠٠٩م.
- فرويد، سيغموند، الحضارة وسخطها، ترجمة برنارد لورتولاري، باريس، سويل، ٢٠١٠م.
- هادوت، بيير، تمارين روحية، والفلسفة القديمة، باريس، ألبين ميشيل، ٢٠٠٢م.
- هيلسوم، إيتي، حياة مضطرة، تبعتها رسائل ويستربورغ. صحافة ١٩٤١-١٩٤٣م، ترجمة فيليب نوبل، باريس، سويل، ١٩٩٥م.
- لاو تسو، الطريق وفضيلته، ترجمة فرانسوا هوانغ وبيير ليريس، باريس، سويل ١٩٧٩م.
- لونوار، فريدريك، السعادة رحلة فلسفية، باريس، كتاب الجيب، ٢٠١٥م.
- مونتين، محاولات، ترجمة أندريه لانلي، باريس غاليمار، ٢٠٠٩م.
- سينيكا، رسائل إلى لوسيليوس، ترجمة بيير ميسكفيك، باريس، بوكيه، ١٩٩١م.
- سبينوزا، محاولة دينية سياسية، ترجمة كارل أبون، باريس، فلاماريون، ١٩٩٣م.
- شوانغ سو، الأعمال الكاملة، باريس، غاليمار، ٢٠١١م.

فهرس

الصفحة

فريدريك لونوار

- فيلسوف وعالم اجتماع.

من أعماله:

- روح العالم.
- السعادة، رحلة فلسفية.
- معجزة سبينوزا.

عبير حمود

- ماستر في الفنون والأدب واللغة - جامعة ليون الثانية.

من أعمالها المترجمة:

- قوة الفرح.

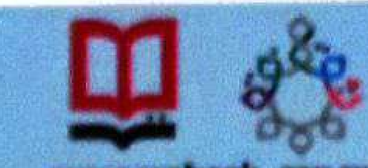
- ترجمة نصوص عديدة للدوريات المحلية.

الطبعة الأولى/٢٠١٩م

«تطمح دون شك، عزيزي القارئ، إلى حياة ناجحة. ليس من الضروري أن تنجح مادياً في الحياة، بل أن تقود حياتك نحو وجود خيِّر وسعيد. دائماً، وفي شتى أنحاء العالم، هنالك رجال ونساء يغذّون هذا التطلع ويعملون على تحقيقه. يرى الجميع أن ما يعطي معنى لحياتنا، هو أن نكتسب قيماً ترقى بنا على المستوى الإنساني. من جهتي فأنا مقتنع بأن هذا المثل الأعلى الفلسفي للحكمة يظل موضوع بحث، لا يمت بصلة إلى عصرنا فقط، لأننا لسنا على هذه الأرض لنحقق أمننا المادي، ونتناسل ونستهلك».

كيف تكون ذاتك وتتوافق مع العالم؟ كيف تصبح أكثر حباً وصاحب فضائل؟ كيف تجد طريق التحرر الداخلي؟ كيف تكبر على مستوى الفرح وتجد الصفاء؟ وهنالك كثير من الأسئلة التي أجاب عنها فريدريك لونوار بإخلاص وبساطة، وقد بدأ بحثه في الحكمة منذ سن المراهقة، ويقودنا بدوره على خطى ملهميه كأبيقور، وأبيكتوتيس، وبوذا، وشوانغ سو، ومونتين، وسبينوزا وإيتي هيلسم، كما استهلم حكمة الأطفال.

إنه كتاب واضح ومكثف.



www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٩م

سعر النسخة ٧٠٠ ل.س أو ما يعادلها